

عيسى

لمحات في العقيدة والاسلام

تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

297.3:I73lA

عيسى، خير الدين محمد.

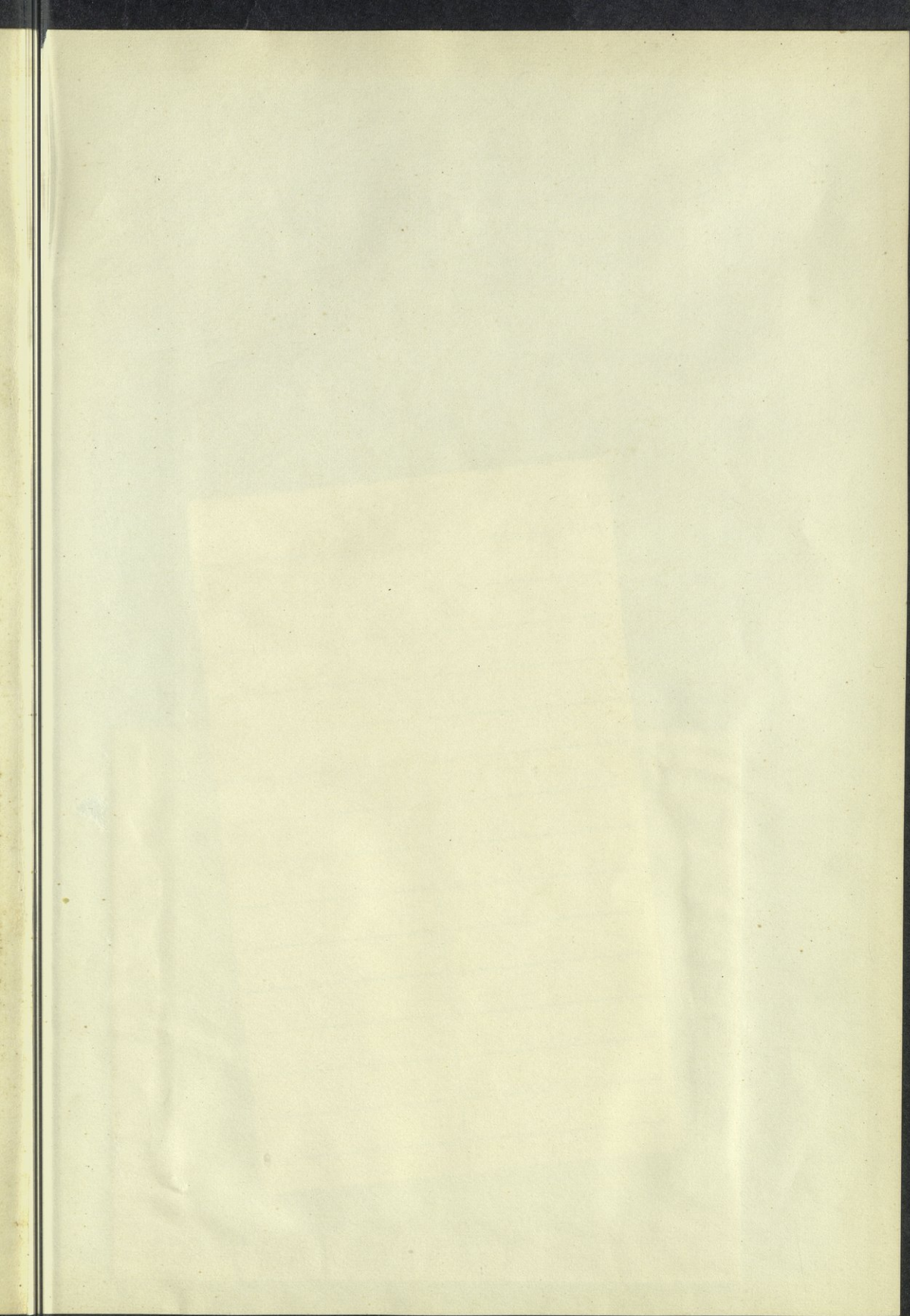
لمحات في العقيدة والاسلام.

7 13.8. 80

297.3
I73lA

JAFET LIB.

26 AUG 1980



297.3
I73-CA
C.1

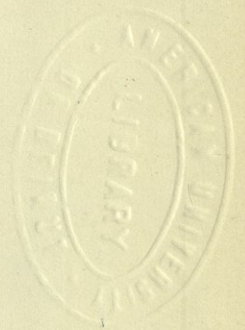
رسالة الخير (١)
خير الدين محمد عيسى



لمحات في العقيدة والإسلام
فلسفة علمية دينية تحليلية جديدة ..

الطبعة الأولى

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م



بسم الله الرحمن الرحيم

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله »
« وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا »
« سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. » قرآن كريم





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَلِيْثُ اَبْنِ سَعْدٍ

يقدم موضوعات

لمحات:

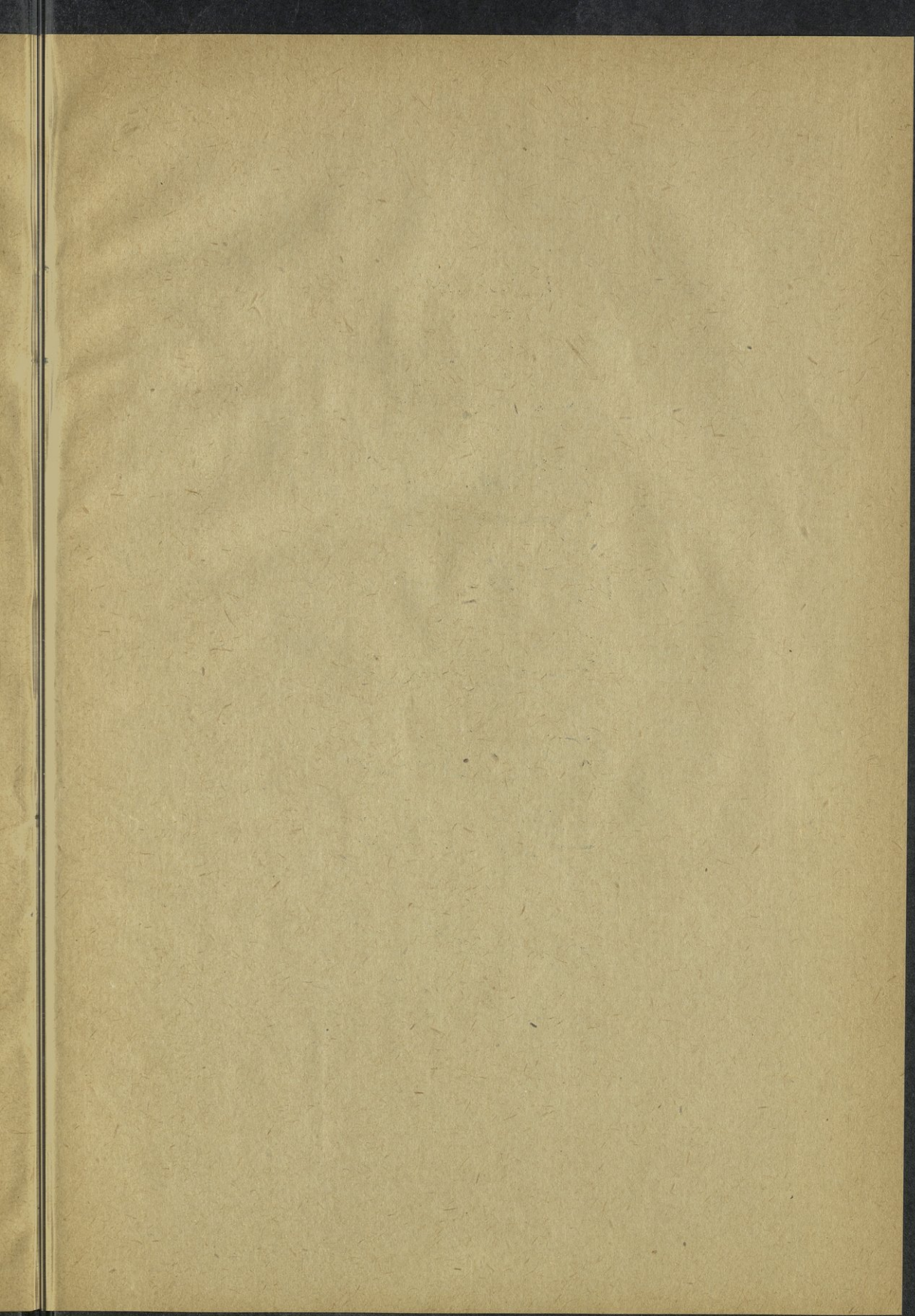
في العقيدة والاسلام

مقدمة في العقيدة

مقدمة في السمع والطاعة

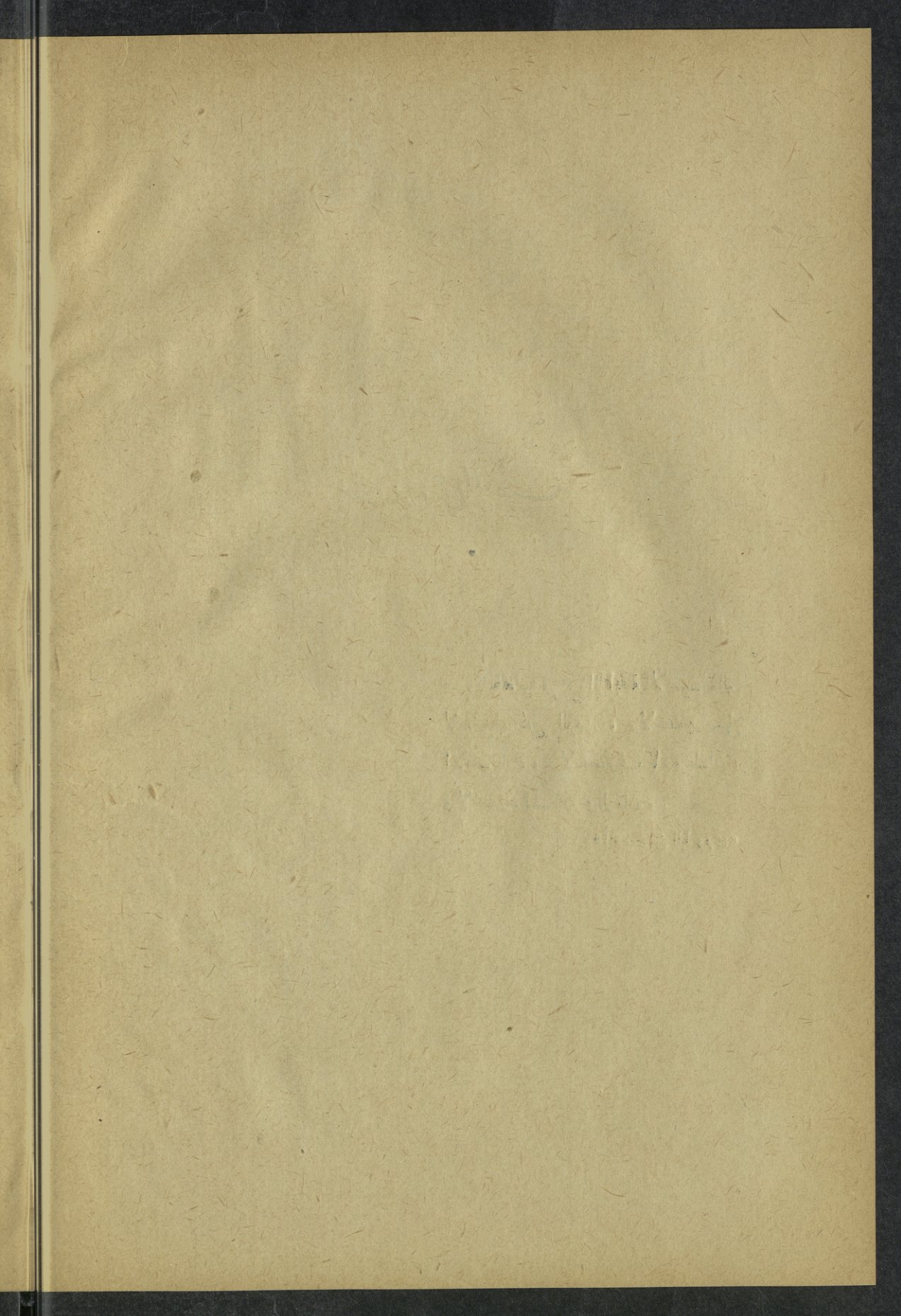
مقدمة في التواليف

تصحيح لمفاهيم حزب التحرير
في سوريا



مقدمة في العقيدة

«العقيدة هي الرابطة الأصيلة التي
لا تتبدل على الزمن ، ولا تتغير على
الأحداث ، ولا تعترف بالأوطان ،
ولا بحدود المكان والزمان .
«أحمد حسن الباقوري»



العقيدة ... من النضاية إلى البدئية

..

ما هي العقيدة .. ؟

هل هي حاسة .. أم نتيجة تفاعل الحواس ؟

هل هي الإدراك أم الوعي .. ؟

كيف نشأت .. ومتى عُرفت .. ؟

هل هي نتيجة إحساس بفراغ .. ؟

ما صلتها بالنفس ؟ ... ما صلتها بالضمير والعقل .. ؟

ما الدافع لوجودها ؟ .. وهل تستمد من الكائنات المنظورة .. ؟ أم غير
المنظورة .. ؟

هل هي فكرة لا تجد ما ينقضها فتعيش ثم تنمو حتى تتمكن .. ؟

هل يمكن أن يعيش الإنسان بلا عقيدة ؟ وإذا تمكن .. فما لون حياته .. ؟

ما هو مصدرها .. ؟ أسر الوجود .. أو سر الخليقة .. أو سر الخالق .. ؟

هل هي نزعة أم نزعات متعددة تجتمع وتتآلف فتتكون منها العقيدة .. ؟

أهي تجربة أم مجموعة تجارب .. ؟

أهي عادة ينساق إليها الناس ، وتمثل في جملة عادات تندمج معاً

فيصبح مجموع الاندماج عقيدة ؟

متى تستقر العقيدة . . ؟

هل هناك مبادئ يجب أن تتواجد ثم تندمج معاً فيحدث هذا الاندماج حالة تكون منها العقيدة ؟

هل يمكن أن يكون لإنسان واحد عقيدتان متناقضتان في معتقد واحد ؟

هل للمبادئ الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أثر في تكوين العقائد ؟

ما أثر الدين في تكوين العقيدة . . ؟

إلى أي حد تحكم العقيدة في مقومات الإنسان فيصبح مقيداً بها مضحياً من أجلها . . ؟

هل تتنافى العقيدة مع الذاتية . . ؟ وهل ينكر الإنسان ذاتيته ويؤمن بعقيدته على أنها مثله الأعلى ؟

هل تستوى العقائد المدروسة والمأخوذة والموروثة مع العقائد المنوحة والموحاة والموهوبة . . ؟

كيف يمكن الحكم على إنسان من عقيدته ؟ ؟

* * *

كل هذه الأسئلة وغيرها وغيرها يمكن أن يقوم وأن يظل قائماً أبداً دون أن يلقى إجابة من أحد . ومع ذلك يمكن أن يقال أن هناك أناساً لهم عقائد . وأن احترام هذه العقائد واجب بالنسبة للغير ، ولا حكم على نوع هذا الواجب بالنسبة لأصحاب هذه العقائد ، ذلك لأن العقيدة ملحة بالغير بقدر ما هي ملتصقة بأصحابها .

على أن أمر العقيدة يمكن تحليله على أساس أنه حالة معقدة يمكن تبسيطها لفهم .

فالعقدة تقوم دائماً عند ما يحاول الإنسان فهم شيء لا يدرك كيف تكون ، وقد تقوم عند ما يدرك الإنسان هذا الشيء كيف تكون ، ولكنه لا يدرك لماذا تكون .

والأمر بالنسبة للإنسان بسيط ، إذا أدرك أنه مخلوق ، السر في خلقه يقوم على عوامل طبيعية وإرادية ولاإرادية . وهو مسير غير مختير في بداية تكوينه . ثم هو مختير غير مسير إذا أدرك عوامل تكوينه ، ومؤديات تصرفاته . . . وهو يسير طبقاً لناموس عام ، وضعه الخالق لعالم الوجود ، وترك للإنسان حرية الخروج عليه ، أو الالتصاق به . .

وإذن يمكن أن يقال أن العقيدة فكرة مارسها الإنسان حتى استقرت فأصبحت عقيدة عنده . . ولا يهم إن كانت عقيدته صحيحة ، أو غير صحيحة ، مادام هو لا يشعر بالفرق بين الصحيح وغير الصحيح ، إذ تكون حياته ذات وتيرة واحدة ، وتفكيره من جانب واحد . .

وقد يفكر الإنسان ليلاً ونهاراً . وقد يفكر في الليل فقط ، أو ينام دون تفكير . وقد يفكر ويعمل في النهار ، وقد يعمل دون تفكير . وقد يفكر دون أن يعمل ، وقد لا يفكر ولا يعمل ، مختاراً أو مضطراً . . وقد يكون سطحياً أو متعمقاً . عادياً ، أو أقل ، أو أكثر من عادي . ومع ذلك ، وفي كل تلك الحالات التي ذكرتها ، لا يخلو من نزعة إلى التفكير قد يكون مبعثها الخوف . .

ف فكرة أنه مهدد بالموت من شخص يعرفه أو شخص لا يعرفه ، لذنب ارتكبه
ويذكره ، أو ارتكبه ، ولا يذكره لا تقضاء مدة على ارتكابه ، أو لارتكابه ،
خطأ أو عن غير قصد ، أو لارتكابه دون أن يتذكر أنه ارتكبه .. هذا وغيره يجعله
مهدداً خائفاً على حياته . وقد تكون حياته قيمة عند نفسه أو عند غيره من
مواطنيه ، أو تكون قيمتها عند غيره أكثر منها عند نفسه .. وقد يكون نكرة
لا يهم أحداً .. إلا أن عامل الخوف من الموت أو الفناء أو التقصص ، يجعله في حالة
اضطراب وعدم استقرار . وقد يأتي فعلاً لا إرادياً بدافع الخوف ، يكون أثره على
ذاته ، أشد مما قد يصيبه ، لو ترك أمره للقانون ليقص منه . وقد يهمله القانون عن
غير عمد أو عن عمد ، لعدم توافر الأدلة ضده ، ولكنه بدافع الخوف يقص من
نفسه فيكشف أمره لمن لم يكن يستطيع أن يراه . لولا ذلك .
ويمكن وراء فكرة العقيدة عامل الخوف ..

وقد يخاف الإنسان أن يدركه الموت ، وهو في سن الشباب ، أو بداية الهيام
الجسدى . وقد يخاف أن يدركه الموت وهو لم يتم بناء العماره ، أو استصلاح الأرض
التي وضع يده عليها ، إلى غير ذلك من الأسباب .. ويستوى في الخوف من
الموت الأليف والشرس من الناس ماداموا يعيشون في عالم له نهاية .. لذلك ، فإنهم
يجندون كل قواهم للحصول على الثمرات ، ولا يصبرون إلى أن تنضج ، فيقطعونها فجأة .

وهكذا تبدأ حالة اضطراب الجسد ، نتيجة لاضطراب النفس . أما للذين
يعيشون للإنسانية .. فلا شك أنهم من خليط من البشر من كل مكان ، لا يعرف
الخوف إلى نفوسهم سبيلاً ، ولا تضعف عقيدتهم ، نتيجة صدمة أو صدمات .

بعضهم يعرفه الناس ، وبعضهم يتجاهل وجوده حتى لا يعرفه أحد .. ولكنهم على أية حال ، يعيشون ويموتون دون أن يغنوا شيئاً من متاع الدنيا الرخيص . . . وهكذا كل الرسائل الحميدة : تبدأ وتنتهى بالكفاح ، والتضحية ، وإنكار الذات ، وينتهى أصحابها فقراء ، ان لم ينتهوا قتلاً أو غدرًا .

وعامل الفقر عامل هام من عوامل اضطراب العقيدة . فإذا ارتكب الفقير حماقة ، فإنه يعلم أنه يرتكبها عمداً — وان كان لا يحاسب نفسه على ارتكابها كالتقادر على عدم ارتكابها — لأن ليس عنده ما يعوضه عن ارتكاب حماقة ، للاضطراب ...

وقد تدفع العقيدة صاحب رأس المال الكبير إلى تفتيت ثروته ، في المشروعات الكبرى ، فيزداد دخله بدلاً من أن ينقص رأس المال ، وقد يندفع صاحب رأس مال آخر ، إلى ارتكاب الحماقات ، مدفوعاً بعوامل الطمع في الدنيا ، فيدوس بقدميه المقدسات ، ويرتكب المحرمات ، وهو يعلم أنه سيحاسب على كل هذه الأفعال ، ومع كل ذلك ، لا يجدوا من ضمير لا يقافه عند حد ... وقد يزيده الله في الرزق ليزيد عليه في القصاص . وقد يفقده ما يملك في الدنيا ليعوضه عما فقده في الآخرة ، وقد تكون فكرة الآخرة أو القصاص أو الحساب ، آخر ما يفكر فيه هذا الانسان . « فلما نسوا ما ذكروا به فتحت عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون » .

وقد يكون إنساناً من نوع آخر . له أحاسيس ، وله معتقدات ، ومع ذلك ، فهو يطمع في الغنى فيزداد فقراً . . . وهكذا تبدأ خيبة ظن الإنسان بنفسه ،

وإيمانه بأنه لا يستطيع شيئاً إذا كان الله لا يريد أن يكون هذا الشيء -
وتزداد خيبة الظن بنفسه حساسية ، وتزداد أموره تعقيداً . . . وقد لا يكون له يد
في خيئته ، ولسبب خارج عن إرادته قد لا يحسه ولا يستطيع أن يرفضه -
يتحول فشله في الحياة الدنيا إلى نجاح ، ووصول إلى نظرة إلى الآخرة . . . نظرة
اطمئنان وثقة ، بأن الله لا يظلم أحداً ، وإنما الناس أنفسهم يظلمون .

إنه مؤمن بحسب عقيدته بأنه بذل ما في وسعه ، ولا شأن له إن حقق أو أخفق .
وهنا تبدأ العقيدة تلبس لونا شفافاً . لا شئ يحجبها عن الخالق ، وإن كانت تظل
غامضة بالنسبة للمخلوق . وهي هنا بمثابة الرصيد المتبقى من إيمان الإنسان بالله
كقدرة فائقة ، وكقوة غير منظورة ، غير محسوسة ، ولكنها البقية المادية لما
يستطيع أن يلمسه هذا الإنسان . ذلك لأن ضعف الإنسان عن فهم الصلة التي
تربطه بالروح ، أي عجزه عن فهم نفسه ، لا يفقده حقه في المغفرة ، مادام لم يتشفع
في غير الله خالقه . .

إن الإيمان ، والضمير ، والعفة ، والشرف ، والعقل ، والذمة ، والإحساس
الخاص . . كل هذه الصفات ، تتمثل في أركان العقيدة ، لتجعل منها حقيقة
كاملة ، بعد أن أدرك الإنسان الحقائق الظاهرية الملموسة فيما أنزله الله على الناس
أيام النبي موسى والنبي إبراهيم عليهما السلام .

والمحسوسات الملموسات في أركان العقيدة ، تختلف قيمهن باختلاف المقصود ،
ووفقاً للزمان والمكان . فحيثما كانت روحانية كان صفاء ، وحيثما كانت
مادية كان ميكروب الفناء معربداً فيها . إذ لا بد من عدم ، ليكون وجود . ولا
بد من تطور ، ليصير تجديداً .

إن آفة العقيدة الشك ، فإذا انتفى الشك سلمت العقيدة .

ولكن هذه الفلسفة لا تقدم للباحث نظرية ثابتة يسند بها المنطق إذا قدر الباحث أنه من الممكن أن يكون شيئاً آخر مستقلاً عن ذاته أثناء تقديم هذا البحث ، أى أن تكون له شخصيتان ... واحدة مادية ، وأخرى معنوية . لأنه لا يستطيع أن يفصل بين الشخصيتين المادية والمعنوية ، ولا يستطيع أن يتحكم فى إجراء هذا الفصل ، إلا إذا خالف عقيدته . وهو لن يفعل ذلك وهو مؤمن ، وصاحب عقيدة . وهو لذلك يؤمن بأنه منتهى ، وأنه سيحاسب إذ لا مفر له من يوم الحساب .

إن الإنسان الأول أزل لأنه بداية الإنسان ذاته ، وسينعت كل مولود جديد بمده باسمه ، لأنه مصدره .

إن الإنسان أزل لا تعرف بدايته على وجه التحديد ، وقد اختلف الناس للآن فى أمر نشأة الإنسان ، لأن منهم طبيعويون لا يؤمنون بخلق اسم الله . إن الإنسان المنعوت باسم ابن آدم سوف يتجدد ، تبعاً لنا موسى الحركة ، والموت آفة الحياة .. فكيف السبيل إلى مناقشة أسباب الوجود ؟ فإذا عرفناها فلا بد للسبب من مسبب .

إن الإنسان سيولد وسيبعث ولو أن البعث فى الخلق الواحد كان قاصراً على من اختارهم الله من عباده الصالحين .

والإيمان عن طريق الدين - أى دين - يقيد العقيدة بدستور هذا الدين ، ولكنه لا يمكن الإنسان من أن يعيش جامداً ، لأن فى الجمود فناء .. فهو قابل للتطور وفقاً لنظرية النشوء والارتقاء . لأنه آفة هذا الوجود . وهو الذى يستطيع بقوة الروح

التي تسكنه ، ان يصنع المعجزات ، أو أن يضعف وينحل جسده ، نتيجة تبتل أو إسراف ..

إن العقيدة التي اتحدث عنها فكرة وإيجاء .. ولكل منا عقيدة تختلف عن عقيدة الآخر نسبياً . فطاقة الانسان على الاحتمال لا تتساوى ، ولكنها تناسب . وبمقدار هذه النسبية ، تتحكم العقيدة في الانسان .

والانسان لا يصنع العقيدة ، ولا يتحكم فيها ، بل هي التي تحكمه أو تتحكم فيه أحياناً .

إن الانسان لا يحال نفسه ، ولكنه يحال نفسيته ، أى نفسية نفسه . لأن نفسيته كذات انسانية حية ، سر من أسرار الوجود ، ارتبط فيه المنطق ارتباطاً لا سبيل الى تقضه .

ومهما كان الإنسان معمرًا في الأرض ، فهو لابد ميت ، أى منفصل عن الروح التي تسكنه ، لأن طاقته على البقاء لها احتمال خاص ، ولأن تقادم الأصل ، وبقائه متطوراً متمشياً مع سنة الشوء والارتقاء ، يحتم التجديد ، تبعاً لناموس الحركة .

وبما أن الإنسان لا سلطان له على الحركة إلا إذا كان حياً ، فانه لذلك يسير وفقاً لمشيئة لا قبل له على إيقافها أو تبديلها ، مسلماً بما وجد عليه آباءه . وابتقضت عهود طويلة ولم يثبت أن واحداً من الذين كانوا يعيشون بأجسادهم في الماضي البعيد ، لا يزال يعيش في الحاضر . وإن كان لم يدركه الموت .

ومع أن أجيالا متعاقبة تعيش في زمن واحد ، فإن عامل التطور لا بد أخذها ومبدلها خلقاً جديداً . « إن يشأ يذهبكم ويأتى بخلق جديد » .

فالموت إذن بالنسبة للانسان — أى بالنسبة لأبناء آدم — ارتحال من مكان معروف ، إلى مكان غير معروف ، آمن به الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر كجنة تجري من تحتها الأنهار ، وقال عنه الكفار أن لا جنة ولا نار .

وهكذا ترى أن العقيدة للمتدين غيرها لمن ليس له دين . انها في الأولى : حصن الطمأنينة ، وبالنسبة للثانية : عقدة نفسية تركزت بمرور الوقت ، فأصبحت مركب تقص .

ومهما كانت الحلول والمحاولات لإطالة العمر ، أو تقوية الطاقة ودعمها ، فإنها قطعاً لن تغير من ناموس الطبيعة ، وناموس الحركة ، وسنن النشوء والارتقاء ..



لقد مسخ الانسان الصورة الطبيعية خلقتة عند ما حاول أن يضيف على شيخوخته شباباً . وعند ما اتضحت له هذه الحقيقة المرة ، أصابه غم عجل في القضاء على حالته الطبيعية فصار مسخاً . وأصبح المديح فيه كأنه هجواً . . وما الحديث الذى نسمعه عن سن اليأس ، والنضوب ، والعقم ، والمراهقة ، والطفولة ، وغير ذلك مما يحى ، متفقاً مع بعض أطوار الحياة سوى ألوان تؤكد تلك الحقيقة الأزلية . . إن ذاتية الانسان باقية ، ولكن صورته متجددة . . !

وقد تكون جميع الأمراض التي يصاب بها الانسان قابلة للشفاء ، إلا الهرم .
وهناك حديث قدسى يؤكد ذلك .

وقد شرح علماء الأحياء ، أصل الانسان ، على أنه أميبا (خلية) سائرت سنن
النشوء والارتقاء حتى صارت إنساناً ... !

ولا جدال في أن عقيدة هؤلاء السادة بتاريخ أصولهم ، تتنافى مع عقيدة المؤمن .
وأرى ، أن انتشار نظريتهم في زمن كهذا ، زاد فيه الاجتهاد ، وضعفت فيه العقائد
الروحية على عكس ما كان ينتظر ، وأصبحت الثقة الاجتماعية ، والاقتصادية ،
والسياسية ، والدينية أيضاً بصفة عامة ، محل شك بين الناس — أن انتشار هذه
التعاليم ، رغم تعارضها — يعود بنا إلى البدائية الأولى ، أي قبل أن تعرف العقائد
السماوية المنزلة ، والموجاه ، لأنبياؤه ، ومن اختارهم على أعقاب التاريخ معلمين
للشعوب . .

وإني كصاحب عقيدة أشك في أن أصل الانسان أميبا تنمو وتحيا في مكان ما
من جوانب الطبيعة ، وإن كنت لا أشك في أن الخليقة ترجع الى أصل واحد
هو آدم ، الذي خلقه الله إنساناً كاملاً غير عقيم ، دون أن يمر بأطوار السن
والولادة الجسدية . ورغم اجتزاء ضلع من آدم ، لتخلق منه حواء — دون أن تمر
أيضاً بأطوار السن والولادة الجسدية — فإن آدم ظل كاملاً . ورغم أنه قد تم بالتناسل
عن طريق تلقيح المذنبات المنوية البشرية ، المحدودة معالمها وكيئوتها ومكانها في
جسم الانسان ، فإن أبناء آدم خلقوا أيضاً كاملين . وإن كان لسنة النشوء
والارتقاء أثر على كيانهم ، فإن هذا الأثر لا يتعدى تطور البيئة ، واللون ،

والسن، لا الشخصية المعنوية ذاتها .. فان جميع أعضاء الانسان تولد معه وهو طفل ، وإن كانت بعض الظاهرات الثانوية تنشأ في سن المراهقة مغبرة عن فضوج بعض العناصر المحددة الظهور في وقت معين .

وبما أن الحياة المادية - حياة أى إنسان - إنما تقاس بالسن أى بالوقت الذى قضاءه هذا الإنسان فى الحياة منذ ولادته حتى وفاته . فان عمر الانسان الذى نعرفه يمكن قياسه بمقياس الوقت ويمكن تحديده ومعرفة العناصر التى يتكون منها طبيعياً .. وبما أننا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ خلق الانسان الاول ، فلا أقل من أن ندعوا علماء الأحياء القائلين بأن أصل الإنسان أميبا ، ليشرحوا لنا الانسان الحالى الذى أصبحت ولادته بالتناسل حقيقة ملموسة - كيف تطور من مخلوق بارادته إلى مخلوق لا إرادة له فى خلقه .

إن حقيقة خلق الانسان الأول من تراب حقيقة فيما أعتقد بعد أن اتضح لى ولكم ، بالممارسة ، والاختبار ، والاطلاع ، والدرس والمعايشة ، وبطرق بذهية لا تحتل الاجتهاد أو المناقشة . لأننى رأيت كما رأيتم ، الكثيرين من الناس الذين ولدوا ، ونعرف متى ولدوا ، والذين ماتوا ، ونعرف تاريخ وفاتهم ، كيف أنهم عادوا تراباً .

وإذا كنا لا نستطيع أن نتصور كيف تطورت سنة النشوء والارتقاء فتتخيل بداية الإنسان بصورة واضحة ، فلا أقل من أن نساير النهاية مسائرة عكسية لنعود بها إلى البداية ، بدلا من أن نجادل حقيقة خلق الإنسان الأول من تراب التى ينكرها علماء الأحياء ، وبالتالى نفى من عقولنا ركناً هاماً من أركان العقيدة التى نؤمن بها وهى أن الله خلق آدم من تراب ، وأنه حين خلق حواء ، خلقها من صلص منه ، حتى

لا يتكرر الخلق من معدن واحد وبطريقة واحدة ، لاستحالة توحيد خلق واحد يتم على مرحلتين وفي زمنين متباعدين ، وحتى يظل خلق آدم أصلاً واحداً متفقاً مع مبدأ التوحيد ، وأن يكون خلق حواء من ضلع منه مثبته لنظرية سنة النشو ، والارتقاء ، فيكون الخلق الأول من تراب ، ويكون الخلق الثاني من عناصر تفاعلت تفاعلاً جديداً ، وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى أول من وضع سنة النشو والارتقاء ...

وإذا قيل بعد ذلك أن عيسى عليه السلام قد خلق بالروح كأمر من أوامر الله سبحانه وتعالى ، وقيل في القرآن بأن مثل عيسى كمثله آدم مع اختلاف الطريقتين في الخلق ، فإن في هذا ما يثبت بأن الله غالب على أمره .

وإذا قيست طريقة خلق عيسى بالروح بنظرية السادة علماء الأحياء من أن أصل الإنسان أميباً أو بويضات جراثيم حيوية تعيش في جنبات المستنقعات ، أو تحت الأحجار ، وفي المياه الراكدة ، إلى آخر تلك المواطن . فإن ناموس الحركة المعبر عن اختلاف الزمان ، يأتي أن يصدق أن أية جرثومة تطورت في يوم ما فأصبحت إنساناً يعقل ، ثم إنساناً يقرر بعد أن يعقل ، أن أصله جرثومة ، أو أن أصله أميباً أو أن أصله ميكروب ، نشأ في ماء آسن ولم يكن أمراً مقضياً قضي الله أن يكون ..

إن الإنسان وهو آية الوجود الكبرى لا يجوز أن يكون مصدره بيئة الميكروبات ، والجراثيم التي يحاربها ، لأن في بقائها القضاء عليه . وإذا قيل بأن الإنسان يحتوي في جسده ، وفي أمعائه ، على جراثيم وديدان قد يكون بينها الكثير من الطفيليات . فهذا أمر جد طبيعي لأن أصل الإنسان من تراب ومن عناصر طبيعية . وهو في حالة افتراق الروح عن الجسد ، وانقطاع النفس ، يبلى فتأكله الديدان التي

تعيش فيه ، أو التي تنشأ بعد أن تفارق الحياة الجسد . فآفة العدم مرافقة للانسان منذ ولادته ، وإلا لما دب فيه ديب الفناء . فالحى لا يموت بطبيعته إلا إذا تلاقح مع طبيعة ميتة ، وتفاعل هاتين الطبيعتين وقدرتهما على البقاء ، انما ترجع الى أمر لا ارادى بالنسبة للانسان ، والا لاستطاع أن يتحكم فى الحياة ، ويأبى الموت ويقدر على البقاء .

وأعتقد أن هذا تفسير منطقي لتطبيق مثل آدم على عيسى عليه السلام ، ولا شك عندى فى أن خلق عيسى بالروح هو تدبير إلهى ومرحلة أخيرة من مراحل النشوء والارتقاء قضى الله أن تكون سابقة للرسالة الإسلامية حتى تسلم العقائد من الشكوك التى ساورتها ومن الشوائب التى سايرت المصطلحات التى اجتهد فى اقرارها كمبادئ للعقائد ، قوم كانت لهم مصلحة ذاتية فى ذلك .

ان آفة العقيدة لا تكمن فيها بل فى الانسان ، فاذا سلمت العقيدة أصبحت محل تقديس وهى على أية حال تتركز وفقاً للإيمان السليم .

والدين — أى دين — ما هو الا الدستور الذى اختاره الخالق للناس ، والديانات مجموعة شرائع ، أو تشريعات ، ومبادئ ، ومناهج لا يدفعنا الى الاعتقاد فيها الا مقدار تجاوبها مع احتياجاتنا الروحية ، والجسدية ، والاجتماعية . والعقيدة كالروح أمرها فوق طاقة البشر تفسيره ، ومعرفة سره . ولكنها الى حد ما ، أقرب الأحاسيس الى النفس ، وأقربها الى التأثير بالعادات والتقاليد .

وفلسفة العقيدة ، تتعالى ، وتتسامى ، كلما كانت خالصة . وتنخفض ، وتتدنى كلما كانت مسببه . ومثلها فى القضاء والقدر اذا شاء الانسان أن يسلم فليسلم ، وان شاء

أن يقاوم فليقاوم . وفي هذه الحالة يكون التسليم بدون فهم ضعفاً ، وتكون المقاومة بغير سلاح جهلاً ، وفي الحالتين لا تكون العقيدة ذاتها مسؤولة ، لأن الانسان يستطيع أن يتحكم فى الاعتقاد فيقبله أو يرفضه أن جزئياً أو كلياً .

وقد تتفق جميعاً فى عقيدة واحدة نعتقدها ، تختلف عند كل منا اختلافاً نسبياً . فطاقة الانسان على الاعتقاد لا تتساوى ولكنها تتناسب . وبمقدار هذه النسبية ، تتحكم العقيدة فى الانسان ! .

وحيث تكون للعقيدة بواعث فلا بد لهذه البواعث من نتائج عملية ، مادية كانت أو روحية . لأن سيطرة العقيدة على الانسان متجانسة مع قوة نفسيته ، حتى ولو كان ضعيف الجسد قاليوجى مثلاً ، حين يعذب جسده ، فانه لا يقصد اهانة الجسد وتعذيبه بالذات ، ولكنه يقصد ارضاء الروح معتقداً أن الجسد سبب المفسد وأنه بتعذيبه اياه يرضى روحه .

وتظل العقيدة سليمة ما لم يشبها غرض . وتقوى الى حد الايمان المطلق كلما كان الانسان راغباً عن متاع الدنيا باعتباره قليل . .

والعقائد المادية تنشأ نتيجة معاملات تتم بين الناس . أما العقائد الروحية فتهمى . الانسان لوحدة مع الخالق لا تنفصم عروتها لسبب مادى . ذلك لأن وحدة المخلوق مع الخالق وحدة روحية .

وتكرار العبارات توصلنا الى ادراك المعنى لا بد أن يؤدى الى ادراكه . وبالتالي سيؤدى الى الوصول الى الكلمة المؤدية ، المعبرة عن هذا المعنى باختصار كل .

فحين تعددت الآلهة ، وكثرت التعبيرات التي أدت الى تسميات مختلفة لها .
بدأ اختصار تلك التسميات لحصر قوة العبارة والكلمة ، في لفظ واحد ،
هو الله ... !

وهكذا حين تعددت المعتقدات واختلط على الناس أمر اتباع معتقد واحد سليم ،
اتجهوا الى الله من طرق مختلفة ، أدت كلها الى هدف واحد ، اذ كانت قبلتهم
وهدفهم التوحيد .

والاعتقاد هو نتيجة إحياء أملاه الإحساس بالفراغ ، أو بالحاجة اليه ، فارتاحت
اليه النفس ، فأصبح عقيدة . وإذن فالعقيدة هي نتيجة استقرار فكرة لا إرادية ،
استحوذت على العقل ، فدفعته نحو مصير معين ، شعر بالسكون اليه .

والمعتقدات هي مسالك طرق يسلكها الإنسان ، فتؤدي به في النهاية إلى نتائج
بدئية تختلف نتائجها باختلاف أنواع البدهيات التي حاول فهمها وادراكها ، وانتهت
به إلى الوقوف عند حد معين ، أو رغب وهو مرتاح إلى ذلك أن يصل إلى حد
يراه صحيحاً ، بالايان . فالايان بالعقيدة اطمئنان وثقة واعتقاد .

والعقائد لا تورث ، ولكنها تتوارث بصفة تقليدية . وفي استطاعة الإنسان أن يتخلى
عن هذا الميراث بارادته إذا أدرك ضعف أو خطأ معتقداته .

والعقيدة الصحيحة السليمة هي في ادراك الانسان حقيقة نفسه ومنشأه ومرجهه في
النهاية . فهو لا يحلل نفسه — كما قلت — ولكنه يحلل نفسيته .

والعقيدة غير المفهومة بداهة عقيدة غير جديرة بأن تعتقد .

والتعقيد في العقائد يؤدي الى التسليم أحياناً بدون مناقشة ! والحياة على هذه

الوثيرة فيها جمود تأباه سنن النشوء والارتقاء ، وقد يؤدي هذا التعقيد الى التخلي عن عقيدة ما واعتناق أخرى...

ولعلنا ندرك الآن أن العقيدة سر من الأسرار التي تحرك البشرية نحو مصير محتوم . فكلما كان الاعتقاد بالله خالصاً ، كان مصير الانسان معلقاً ، على مقدار ما يقدمه من عمل خالص لله ...
وأن أقوى العقائد وأخلصها ما كان هدفه غير منتظر الجزاء ...

* * *

عل أن فهم الناس للعقيدة ظل حائراً إلى أن أدركهم الإسلام ...
اعتقد المسلمون بأن لعبادة الله الخالصة نتائج إيجابية ، فآمنوا بالله ، على أمل أن تكون حياتهم الأخرى في الجنة .. ودفعهم إلى الإيمان بالآخرة ، عذاب الدنيا ، وحرها ، وجديها ، وشقاؤها ، وحزنها . وبذلك استطاعوا أن يهضموا عذاب الدنيا ، ليتمتعوا بالراحة في الآخرة . وهكذا حرصهم الله على فعل الخير مع أنفسهم ومع الغير ، بطريق غير مباشر .

وإذا تصادف أن خاب ظن إنسان بإنسان + وهذا كثيراً ما يحدث - تعرضت عقيدته الى الاختبار . فاذا استطاع أن يعلل علة خيبة الظن بأخيه ، تمكن من اجتياز الاختبار دون أن تمس عقيدته . وإذا لم يتمكن ، جازف بقبول هذا الاختبار ، وكثيراً ما أخفق .. ومع ذلك فقد وسعت رحمة الله كل شيء .
وقد يكون لبحث بعض أركان العقيدة الإسلامية مجال للاجتهاد يختلف باختلاف نزعة الباحث نحو فهمه .

فالعقيدة التي تدفع المسلم لرجم الشيطان بالحصى ، ما هي إلا لون فلسفي للفعل المادى ، يندفع فيه الناس ، لاحتصلا لجزاء مادى ، ولكن لشفاء علة فى النفس .

وعقيدة إبراهيم التي بلغت حد إنكار الذات حين أوحى إليه أن يضحي بولده تنفيذاً لسنة التضحية ، مبعثها الايمان المطلق بالله الواحد غير المنظور ولطف الله الذى تجلى باستبدال الولد بكبش ، جاء محققاً لصدق ايمان إبراهيم بالله ؛ وخير جزاء لا تنفاء الشك هو ثبوت اليقين . فقدف الشيطان بالجمرات والطواف والسعى والهرولة ، وغير ذلك من مناسك الحج ، ما هي الا تكرار لممارسة تقاليد عريقة تدفعها العقيدة الى مرتبة السنة والفرض والالتزام . وهي ان دلت اليوم على شئ فأنما تدل على مقدار ما للعقيدة من قوة تجعل الانسان فوق انسانيته وفوق مستوى تفكيره . انها هنا الصوفية . والتصوف نتيجة تخمر فكري ، فكلمة تخمرت العقيدة أى اختمرت تصوف صاحبها ، وهذا هو المتنفس الوحيد لها .

ان النظرة الصوفية للحياة المادية ترى فى الانسان أداة صالحة للاستغلال والمتعة . فاستغلال القادرين لغير القادرين ، واستعبادهم لقاء لقمة العيش ، وتسخيرهم للبناء ، وتركهم فى العراء ، والاستمتاع بأجسادهم بارهاق ، يخلف نتائج منتظرة ملموسة . فاليافع حين يرجو اللذة البيمية ويحصل عليها بطريقة إيجابية ينتهى الأمر به فى النهاية الى الاحساس والوصول الى النتيجة السلبية التى خلفتها المتعة غير المشروعة أو غير المعتدلة ...

وقد يكون لليافع بقية من عمر لاصلاح مافات : ولكن هذه الافعال ان حدثت من انسان مسؤول مكتمل الرجولة متقدم فى السن كانت أشد وقعاً على

الانسانية وخيبة أكبر . وهنا يصبح التصرف الشخصى محل نقد الغير واصطدامه مع أصحاب العقائد يصبح أكثر احتمالاً . والمجتمع عادة يتأثر بتهاون أعضائه فى تنفيذ اشتراطات ومراعاة تقاليد الناموس والشرعية والسنة والفرض ، ومن هنا ينشأ الالتزام . التزام الانسان باتباع تقاليد من صنعه هو ، وانتقال هذه التقاليد بمرور الايام وتطورها الى مرتبة العقيدة اذ تصبح وكأنها جزء منها..

ان العقيدة فى الاسلام قد سائرت سنن النشوء والارتقاء ، الى أبعد حد وقبلت مبدأ التطور ، ولم تعترض على العادات والتقاليد التى كان الناس يعيشون عليها قبل نزول القرآن . وقد اختلف بعض الناس فى تقدير وجهة الدين مع أن الحقيقة التى جاء بها الاسلام كانت من الصراحة والبساطة بحيث جعلت الناس يتخبطون فى تقدير وجهتها . فالاسلام حين يترك للناس حرية اتباع الطريق المؤدى إلى التوحيد، أو حين يرسم لهم صراطاً مستقيماً للوصول إلى الواحد، فإنه إنما يعطى لكل جيل من الأجيال ، ولكل قوم من الأقوام، فى كل زمان ومكان ، حق إنهاء الحياة من البداية التى بدأوا منها ، لتعذر انتهائهم معاً قبل أن تكون نهاية جامعة ، وبعبارة أخرى نهاية للحياة الدنيا ... كما أنه لم يدع إلى التوحيد بالعنف بل ترك للإنسان الحرية فى أن يؤمن ، وفى ذلك قال «من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر» وإن حذر الناس أن يشركوا بعبادة الله أحداً ، وفى ذلك قال «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» . وليس فى هذا أى تعقيد بالنسبة للرسالة أو بالنسبة للناس بل فيه التيسير كل التيسير للذين لا يستطيعون أن يصلوا بادراكهم إلى فكرة التوحيد دفعة واحدة فالمسيحية التى تنادى بالبعث والقيامة إنما تنادى أيضاً بالتوحيد ولو أنها لم تسطع لأن أن تجد الداعية الذى يمكنه أن يجعل الناس يتقبلون الله دفعة

واحدة دون أن يقسموه إلى ثلاثة أقانيم . وعلى ذلك فإن الانسان حين يعتقد مخلصاً بالله فانما يعتقد بأمر واجب التنفيذ ، تحقيقاً لأمنية مقدرة الوقوع ، وعد الله بها المتقين من عبادته المحاصنين له الدين . ومن هنا تبدو العقيدة الاسلامية عاملة على اشتراك الانسان في التمتع بالدنيا ، وفي رجاء التمتع بالآخرة ، وعقيدة كهذه جديدة بأن تعتقد . لانها في الوقت الذي توحى به للانسان أنه قادر على السيطرة على موقفه في الدنيا فانها تترك له فرصة التمتع بالآخرة من حيث تمكن لروحه السير في طريقها إلى آفاق أعلى وأبعد توصلنا لخلاص الجسد من متاعب الحياة المادية وآلامها . في الوقت الذي تسلم بأن الوجود لن ينعدم ما دام الانسان حي فيه ، وفي الوقت الذي تقرر بأن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن لا فضل لعربي على عجمي ، وأن أكرمكم عند الله أتقاكم .

إن الانسان لا يحس ببدايته كيف بدأ ، ولكنه يحس بنهايته كيف ينتهي ومن هنا نعلم أن العقيدة تقرب الينا فهم الوجود كسر من أسرار الخلق والخالق . فهي تعيش فينا ما دمنا نعيش ، وهي تنتقل من بعدنا إلى غيرنا من الابناء والاحفاد . إنها هنا عادات وتقاليد ولقاح موروث علينا أن نحفظ به تقياً خالصاً متطوراً متمشياً مع سنن النشوء والارتقاء .

إنها تبدأ كحاسة حين يبدأ تطلعنا إلى الحياة ، فالطفل حين يميل إلى الرضاعة يدفعه إليها عامل الجوع لا عامل البقاء ، وحين تمتنع عليه الرضاعة يدفعه إليها عامل الجوع والاحساس بالحاجة إلى الغذاء ، ولا يفكر مطلقاً في البقاء أو الفناء . وحين تتغير طريقة التغذية لسبب ما ، ينتقل الى الطريقة الجديدة بعامل الوعي ، والادراك والاحساس بالحاجة الى الغذاء . وهو في هذه الفترة يستمد الوعي من عوامل منظورة

وغير منظورة اذ أنه لا يقدر على الحكم على النتيجة لانه يعيش لا ارادياً مدفوعاً الى الحياة دفعاً .

ومن مجموعة نزعات تتألف مع بعضها ولا تجد ما ينقضها يشكل الانسان طعامه بعد ذلك وفقاً لقدرته على الاستساغة والهضم ، والحاجة ، وهكذا تكتمل عقيدته .

وكما وجد أصحاب العقائد في علماء الاحياء من يقول بأن أصل الانسان أميبا فقد وجدوا في آخرين من يقول - كداروين - أن الانسان والقرد من أصل واحد . وقد افتر هذا الرأي برغم نظرية النشوء والارتقاء الى ما يؤيده اذ لم يشر الى كيفية انقطاع الرابطة أو الصلة بين الانسان والقرد ، وكيف تحول الانسان القرد الى انسان له وعى وادراك واحساس ، وعقيدة . اذ أنه من أجل أن تستقر العقيدة يجب أن توجد المبادئ ، ويجب أن تندمج هذه المبادئ دون تناقض ، أو كما قيل : « أن المعلوم الجديد لا يثبت في النفس الا اذا تلاقى مع معلوم قديم يكتسب منه التركيز والثبوت الى جانب حيوية الجديد ، كذلك الناس جديدهم لا يفيد الا اذا ارتكز على قديم » وهكذا أرى - كصاحب عقيدة - ان اندماج مبدأ نظرية داروين مع نظريتي كادامى فيها تنافر وبالتالى تناقض غير مستساغ ولا يمكن الأخذ به . اذ يستحيل أن يكون لانسان واحد عقيدتان متناقضتان في معتقد واحد .

اننا حين نراجع كتب التاريخ نرى أن الانسان في العصر الحجري دأب على تخيل صور لمعتقداته كان ينقشها أحياناً على الحجارة ثم بدأ يحفر لها التماثيل . وكان ميالا لاعتبار بعضها أكثر من البعض الآخر حسب ظروفه مما يقطع بأنه كان يجرى وراء شيء لم يستطع تحديد كنهه . وقد استقر له أن الشمس ، والماء ، والهواء

والزرع وغيرها من الطبيعيات قوى لا غناء له عنها ، فعبدها على أنها ليست من صنعها هو ... ثم عبدها على أنها من صنعها هو . وكما بدأ ايمان الإنسان بما حوله مادياً كلما نشأت عنده فكرة عن شيء جعل له رمزاً — هكذا بدأت دولة الأصنام الحجرية والآلهة ... اصطنعها الانسان ، وخلفها لأعقابه . وجاء الخلفاء ، وهم لا يدرون من أمر التصورات التي تصورها أجدادهم شيئاً . فورثوا عاداتهم وتقاليدهم ، ومعتقداتهم . وهكذا كان اللقاح متوارثاً وأصبح عقيدة للأحياء الموجودين .

وبدأ الاعتقاد في الأصنام ، والمريثات ، والمنظورات ، يصبح محل شك الانسان ... ان هذه القوى المنظورة وهذه الأصنام المنحوتة تنقصها القدرة على التشكل حسب مقتضيات الحاجة اليها .. انها بداية النهاية لدولة الاصنام ان لم تستطع الاصنام أن تكون على الاقل كالانسان روح وجسد . ولعلها كانت بدائة فهم الانسان لنفسه على أنه إله ... فالانسان ظاهرة الحياة ، والحياة روح ، وهذه الاصنام جامدة لا تتحرك .. ولا تستطيع أن تصنع شيئاً .. انها اذاً غير جديرة بالاعتبار انها لا تتجاوب أو تتجانس معه ، وهو لا يقدر أن يستسيغ هذا الوضع .. انه يتأثر وهي لا تتأثر .. انه يستطيع أن يدفع عن نفسه البلاء ، وهي لا تقدر أن تدفع عن كيانها في سبيل البقاء . انها صامتة ، وهو يتكلم .. انها اذن محل شك فليجرب أن ينتقض عليها ليرى ما هي صانعة به .. لقد حطمها فلم تقاوم .. اذا هي على لا شيء .. ان الصخور تنفتت ، وتحول الى ذرات تنقلها الرياح من مكان الى مكان ، أما الانسان فانه يستطيع أن يبنى بيته .. أما هذه الأصنام فانها لا تستطيع أن تحمي أسوارها .. ويجب اذن أن تتحطم .. وجاء ابراهيم وحطم الأصنام التي عبدها آباؤه

وضعها أجداده ، وبدأت في تلك اللحظات التاريخية معركة الشك واليقين . وكانت
بدائة الخلاص للانسانية مما صنعتها بيدها .

وتبعاً لسنة النشوء والارتقاء والتطور ، اكتشف الإنسان أنه قادر . . فمن أين
يستمد قدرته ؟

إن هذا الوجود لا بد له من واجد ، ولا بد للمخلوق من خالق خلقه .
وهكذا بدأ الإنسان يؤمن بالقوة غير المنظورة ثم تدرج في الإيمان ،
واعتقد بالله ...

وكان أن أرسل الله رسولا لكل قوم منهم ، وكانت مهمة الرسل حمل رسالة
سماوية تتضمن مبادئ ، وأسس شرائع اجتماعية وروحية ، تتفق مع الزمان ،
والمكان ، والبيئة ... وتطورت هذه الرسالات تبعاً لسنة النشوء والارتقاء . .
فالموسوية اليهودية سبقت المسيحية ، والمسيحية اليهودية سبقت المحمدية الإسلامية ،
وهكذا تطورت العقيدة وسارت في طريقها إلى مئات الملايين من البشر .

وكن للعقيدة الدينية أثر في تكوين العقائد السياسية نتيجة تفاعل الدين
والمجتمع . ولم يستطع أى مذهب سياسى أن ينجو من النقد بل إن حياة المذاهب
السياسية مرهونة ببقائها على المعارضة والمخالفة . وقد تعرضت العقيدة إلى إهمال رجال
العلم ، والمنطق فلم يرجعوا إليها حين ضاق بهم أو حين أخفقوا مرة . بل جافوها كلية
وراحوا يتكبرون ويحتهدون ، ويفسرون الدين على هواهم . وساروا في جانب
المصلحة الذاتية فالتفت عليهم أعمالهم وذهبوا وذهبت ريحهم .

على أن العقيدة الدينية لم تسلم من الخوارج الذين استغلوا جهالة العامة ممن لم

تساعدهم ظروف الحياة على التعلم والتحصيل . فترتب على ذلك أن انحرفوا عن الجادة والصواب . وبمرور الزمن أصبحوا ضحايا للدعاة المرتجلين الذين لم يوقفهم أحد عند حد معلوم فاستمروا الخطأ بعد أن تكونت لهم فيه شخصية . وقد تعصب لهم العامة من الجهلاء وهم لو دققوا وفحصوا لعدلوا عن الخطأ ، ولكونهم لم يعلموا لم يعدلوا ، ولكونهم لم يعدلوا فقد أخطأوا ، وأصبح من العسير اقناعهم بالصواب .

وقد مرت العقيدة المسيحية بالكثير من الأخطاء التي ارتكبتها بحسن نية مؤكدة بعض رسلها ، وسدنة رسالتها ممن ذهبوا إلى الرومان وحدثوهم عن السيد المسيح باعتباره المخلص الذي بعثه الله رحمة للناس ، وكانت العبادات عند أهل روما لا ترقى إلى أبعد من القيصر الذي كان يعتبر نفسه إلهاً .. وسرعان ما انهارت قوى الرومان وأهل بيزنطة أمام العقيدة المسيحية التي جاءت لتبقى . ثم سرعان ما بدأ الشك يدب ديبه من جديد أمام منطق الرسالة الإسلامية التي تنزلت على الرسول العربي القرشي الذي جاء مصداقاً لما بين يدي الناس ومصححاً لعقائدهم بالوحي الإلهي المنزل . وكانت فصاحة العرب في شوق إلى من يعجزها وكان القرآن الكريم إعجازاً وبياناً لا غموض ولا إبهام فيه ولكونه أنزل بالعربية فقد أفصح للناس في مهده الرسل والنبیین في المشرق ما ألتبس عليهم من فهم للغات السامية والأشورية والعبرانية واليونانية القديمة التي كتبت بها التوراة والأنجيل .

وإذ وضحت الحقائق وتصححت الوقائع واستضاءت البشرية بنور الله « الله نور السموات والأرض . مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح في زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري . يوقد من شجرة مباركة . زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء »

وإذا تأملنا في مدلول الآية الكريمة عند قوله تعالى : زيتونة لا شرقية ، ولا غربية ، لأدركنا الحكمة الإلهية في جعل الأمة الإسلامية العربية أمة وسط . وقد قال تعالى : « وجعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » .

فإذا كانت هذه هي مشيئة الله فمن ذا الذي يعقب على إرادته ، ومن ذا الذي يرفض حكمته وأحكامه ؟

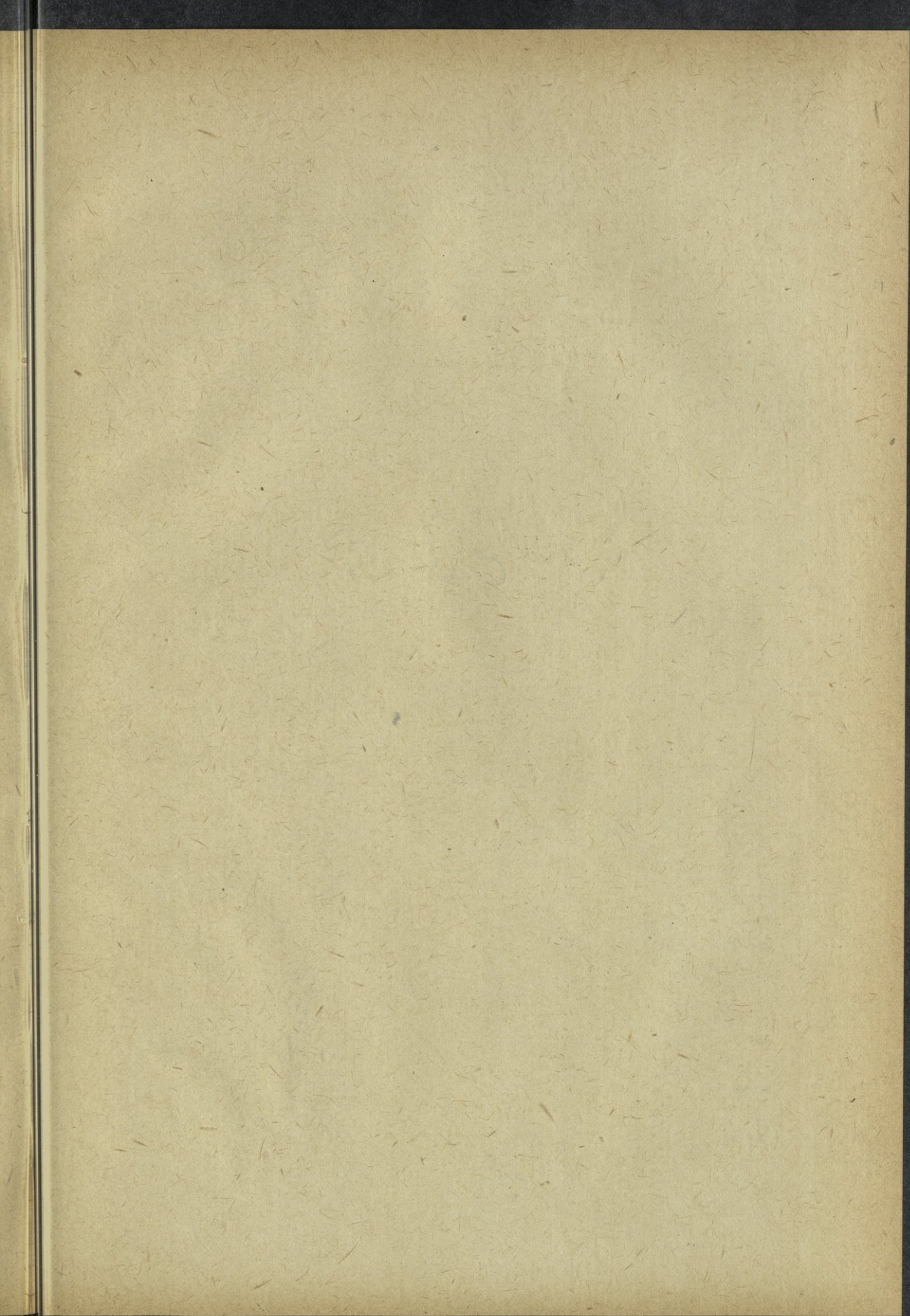
إننا أمة وسط ... كتب علينا أن نكون أمة وسطاً ... وسنكون الأمة الوسط التي ذكرها الله في القرآن ... إنني مؤمن بهذا وعامل له ، ومعتقد فيه ، وعقيدتي عن يقين ، لأن مجازاة العاصي ، واضطهاد البريء كانا لهما ما يبررها في الماضي أما اليوم فلا مبرر لهما أبداً .

لقد خيف على المسلمين يوماً أن تحوّلهم العقيدة البشفية إلى سوائم ، ولم يكن لذلك الخوف محل لأننا نعلم علم اليقين أن الحرية الفكرية في الاسلام قد منحت البشرية حق الحياة الكريمة العزيزة ، وسأوت بينهم في حق التمتع بالدنيا . فمن أراد أن يكون له من جنات الآخرة نصيب فليعمل لآخرته في حدود ما أوصى الله به ، ورضى عنه وهو مرسوم في كتابه العزيز . فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وما ربك بظلام للعبيد .

* * *

هذه عوامل اعتملت في نفسي أرجو أن تكون خير معبر عن عقيدتي .

مقدمة في السمع والطاعة



أيها القارئ الكريم :

لعلك قد طالعت في مقدمتي في العقيدة ، بعضاً مما يجول بخاطرک من المعاني التي لم تطالعها فيما طالعتہ مما کتب من قبل في هذا الموضوع ... ولعل لحاتی العابرة التي أنقلها إليك ، تنفس عن صدرك بعض ما يضيق به ، وتجلو عن أفکارک بعض الصدا الذي تراکم على أمهات تفكيرنا معاً ، فضقنا بالأحداث الحادثة ، ما نسمعه عنها وما يصيغها منها ...

فلما وجدتي باحثاً عن الاستقرار ، والسلام الروحي متأثراً بما وصل إليه الناس من تعليل للحوادث والأحداث الجارية ، يرين عليهم الخوف والذلة ، نتيجة ما أسرفوا فيه من انحراف عن الصراط المستقيم ، واتباعهم صراط المغضوب عليهم والضالين ... فباءوا بما اقترفته أيديهم من آثام ، وذاقوا العذاب بما احتوته قلوبهم من أحقاد لا مبرر لها ، إلا أن يستبدلوا ما أوصاهم به الله بلسان النبيين ، وما نهاهم عنه أن يفعلوه ، من شأن الفعل ، أو فحش القول ، أو سوء الظن ، أو أثم التفكير فتتملكهم الأثرة وحب الذات ، ويعتمل الحقد في نفوسهم ، فينسيهم حب الدنيا ، ثواب الآخرة .. مما أضعف العقائد ، ورجح كفة الشر ، فمالت الموازين . فكان استمساك الإنسان بالأرض ، وحب البقاء . فلما ضاقت بهم الأرض بما رحبت لفظتهم ، ثم انتقضت عليهم ، فخلقت ظنونهم ، أو انشقت وابتلعتهم .

ووجدت في الجانب المقابل للمحاق ، جانب النفس الانسانية التي تعمل جاهدة ، لخير الانسان وخير البشرية . فاذا بي أراها على غير ما كنت أرجو ... رأيتهما تستهدف اللوم وكيد الخائفين ، ثم تستهدف للقتل أو الاغتيال باسم التفسير الجديد القديم ، الذي لقرآن مسيلمه .. مع ادعاء مغرض لعين ، بأن هذا تطبيق لتعاليم المسلمين ... ولا أقول تعاليم الاسلام ، فان الإسلام برىء من أفك المؤتفكين

والمرتدين الآثمين . بڑى، مما يدعون .. ألا أن دعواهم باطلة ، ودفاعهم باطلة
الآباطيل .

ووجدتني تبعاً لذلك التفاوت الكبير بين قوى الخير والشر ، أقف في مفترق الطريق .
أنظر من خلال الستار الكشيف ، الشفاف .. الذى يفصلنا عن المستقبل . فإذا بى أرى
المبصر المتعامى ، والعجوز المتصابى ، الضاحك بقلبه ، الباكى بعينه ، يستدر الدمع ،
وما هو فى حاجة إلى ذلك .

وأدور حولى .. فإذا بالذين نعدهم بدائين قد سبقونا إلى التقدم والرقى والاتحاد ،
وإذا نحن نتخلف ، وقافلة الزمن تسير ...

أفلا يضيق الإنسان بنفسه إذا امتلأ من الفرح أو الغم ؟ أفلا يفيض بجزء مما يؤرقه ؟
ألا تجد فى هذه اللحظات بعض أصداء تفكيرك ؟ . فتعيش معى فى هذا الأطار
المرموق خط الحدود الأرضيه بيننا وبين الشرقيه ، والغريه باعتبارنا الأمة الوسط ،
التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز ؟ فإذا بالحدود المرسومه تتلاشى رويداً رويداً
كما لو لم تكن أول مرة حين ترانا ننظر إلى بعيد بتعمق فيلوح لنا نصر الله آت
لا ريب فيه . وإذا بالكعبة الشريفة ، تجلبنا إليها ففكرة المؤتمر الاسلامى الذى
سيعلم الزحف الثالث للإسلام نحو حدود الله .

لقد كثرت الحوادث والاحداث العالميه ، وأصبحت حديث الساعة بحسبان هذه
الأحداث من علاماتها .. ؟ ألا يمكن أن تكون الأحداث الحادثة من علامات
الساعة ، بالنسبة لمعركة الشك واليقين ، قبل أن يكون الدين كله لله ؟

إذن فقد جاء دور الإسلام مرة أخرى .. وليكن سمع ، وطاعة لولى الأمر ..
ولأشرح لك أيها القارئ الكريم لمحة مما أعتقد . فقد ترى فيما أعتقد توضيحاً
جديداً . وقد لا ترى فيه جدة . ولكنك على أية حال لن تضعي وقتك عبثاً .

لا خلاف في أن السمع ، والطاعة من الكلمات ذات الدلالة المعنوية العميقة جداً ،
وسواء كانت من حيث التعريف أسماء أو أفعال أو أسماء أفعال فإنها لا شك تعنى
بمفهوم بسيط لا يحتمل المناقشة أنها من أقوى الكلمات بله الأوامر الملزمة الصادرة
عن أمر توافرت فيه القدرة على معرفة المعلوم الغيبي .

فالآمر يرى ما لا يراه المؤتمر في التو واللحظة . ونحن مأمورون سواء كنا نؤمن
عن عقيدة أو نصدع لمشئته نجعلها — هي على أية حال فوق إدراكنا وفوق مستوى
تفكيرنا . فالمؤمن بالحياة يجب أن يكون مؤمناً بالموت . وسواء آمن بالموت أو
بالحياة أو لم يؤمن بهما فإن ناموس الخلق والخلقة يسير وفق مشيئة آلهية لم يدركها
العلم رغم تقدمه . وأنه لا سبيل للإنسان للتعبير عن الحياة بأكثر من ممارستها حتى
يكون الموت . فتنتفى مسئوليته هو عن التعبير ، وتبقى تعبيراته ذكرى لمن سيخلفه .
والسمع والطاعة في الإسلام ، من الفرائض الموجبة الواجبة . التي أمر الله بها
الرسول صلوات الله وسلامه عليه لتسلم العقيدة من أخطاء الاجتهاد والتأويل وليسلم
الكتاب الذي أنزل على الرسول بالحق من اللغو والمدخول اللفظي .

إن القرآن الكريم ليخز بالآيات البينات الدالة على أن رسالة الاسلام محفوظة
في هذا الكتاب — القرآن الكريم بدليل قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر ،
وإنا له لحافظون » .

وإذا أردنا أن نتناول الذكر بالتفسير لأخذنا أولاً بالمعنى أن الذكر يعود على
الماضي فيذكر الانسان أحداثاً وحوادث وقعت في الماضي ، وأن هذه الأحداث
والحوادث تعبر عن المثل التي ضربها الله للناس لعلمهم يتفكرون ، وأن المعلوم الغيبي

الذى لا يراه الناس ، ولا يعيشون فى زمانه أو مكانه ، يستطيعون مع ذلك أن يتصوروه حادثاً فى أى زمان ومكان ، كما مر قضى الله أن يكون ، وأنه لا سبيل إلى رد القضاء لأنه لا إراد لقضاء الله .

وإذا كنت أنه هنا آيات من الكتاب الكريم - القرآن - فلا أنى أو من بما جاء فيه مصداقاً ومصححاً لما بين يدي من كتب دينية أخرى كالنوراة والانجيل ورسائل الرسل التى يرجع تاريخ بدءها إلى ما قبل تنزيل القرآن بعشرات القرون ، والتي ما تزال للآن محل اجتهد من الناقلين للغاتها إلى اللغة العربية على الأقل . فأننا كقارئ باللغة العربية باعتبارها لغتى أستطيع أن ألاحظ على اختلاف ترجمات هذه الكتب قصوراً عن إدراك حكمة الذكر كما أنزله الله . فرجال الكنائس وزعماء المذاهب الدينية الذين تأثروا بأخلاق بيئة معينة - قد تكون أحاسيس شخصية بدليل الاتجاهات الخاصة لكل صاحب أنجيل من الأنجيل - لتبين لنا مدى اتساع أفق المجتهدين ومدى تجردهم عن الهوى أو قصور فهمهم لشرح مكنون الذكر ، أى سير الأولين .

وفى الوقت الذى أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن على الرسول الأمين ، والنبي الأُمى العربى القرشى ، جاءت لغته وبيانه وبديعه إعجازاً فى اللغة والبيان ، حتى أن المتغيطين من فحول شعراء العرب الذين أخذوا عن الجاهلية فكرة خيالية تصوروها دون لمس ، قالوا عن الرسول الذى أعجزهم بيانه : أنه مجنون بعد أن وجدوا أن إطلاق كلمة شاعر عليه أقل دلالة ! ...

وفى النص على عربية القرآن الكريم فى آى الكتاب المبين ما يؤكد لنا أن الناس

اختلفوا في تلويل التعاليم ، والشرائع التي سبقت تعاليم القرآن ، وأن هذا الاختلاف يرجع إلى الأغراض التي أعمت بصائر الكارزين بالرسالة المسيحية بعد أن أعمت بصائر المتألمين ، من قياصرة الروم والرومان ، وولاة الولايات التي حكمها الروم والرومان ، من قبل مجيء المسيح عليه السلام ، ومن بعد بعث الرسول عليه السلام . ولا مندوحة لنا نحن العرب الناطقين باللغة العربية — سواء كنا يهوداً أو نصارى أو مسلمين من الذين آمنوا بمحمد من — الاستمسك بتعاليم القرآن لأنه الكتاب الذي أنزل بالعربية لغتنا الأصلية . والذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ولا مناص لنا من أن نصدع لقوله تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) .

وإذا كانت الطاعة مسبوقة بالإيمان فهي لا شك مسبوقة بالأمر فطاعة الله لا تتأتى إلا بعد الايمان به والايان لا يتأتى إلا بالمعرفة ، وقد يصل الانسان إلى المعرفة بالاجتهاد فإذا ما ووجه بأمر صادر اليه من لدن خالقه انتفى عامل الاجتهاد بالنسبة له بعد أن تم تأكيد المعرفة بالايحاء .

وقد يكون السبيل إلى هذه المعرفة — الايحاء — من لدن من يملك الوحي والتوجيه ، وقد يكون الوصول إلى المعرفة عن طريق العلم . فإذا لم تكن وسيلة المعلم الكتاب فان الاجتهاد يصبح قاسماً مشتركاً . فإذا طبقنا هذه النظرية على الكتاب الذي أنزل على الرسول وجدنا أن عامل الاجتهاد قد انتفى بالنسبة له لأن مهمته — أى مهمة الرسول ، كانت إبلاغ الناس بأوامر الله .

وبما أن أوامر الله كقضائه مقدورة لكل عصر ومكان ، في قوانين لا تصح مناقشتها ، بل لا تلزم مناقشتها ، لأن الله أودع فينا الحواس قبل العقل ، وقدرنا على

الفهم لكي لا يتعطل العقل . فناموس الخلق دقيق الصلة بعضه ببعضه حتى أن كثيراً من الناس الذين أعياهم إدراك الظاهرات الطبيعية راحوا يجتهدون في استدراكها من الظاهريات الطبيعية .

وقد أطلق الإسلام الحرية الفكرية للناس بعد أن وضع النصوص الشرعية وأوضح المبهمات والملتبسات ، وفرق بين الحق والباطل وخاطب الأمة الإسلامية العربية بقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) .

وقد أجل سبحانه وتعالى كافة العلوم التي أهل الناس لعلمها في الفرقان واحتفظ لذاته بعلم الساعة وبما لا يعلمه الناس من عالم الشهادة والغيب أى ما لم يروه ، وما لم يسمعوا به وفرض طاعته على الناس ، وفرض عليهم طاعة الرسول وأولى الأمر منهم . فإذا حادوا إن طوعاً أو كرهاً أو عن غير قصد عن الصراط المستقيم أو حين يضطرون لأن يتخذوا من دون الله ، والرسول ، وأولى الأمر فيهم - الذين هم من جنسهم ، ومن أصلابهم - أولياء . أو حين يتعدد أولياء الأمور ، وتتنافر الأقضية ، وتخرج على ما قضى به الله ، فان رحمته سبحانه وتعالى ، تحل محل قضائه فينا مادامنا لا نشرك بعبادته إلهاً آخر .

وإذا اتخذنا الرسول ولياً شرعياً لأمر المسلمين ووجدناه قد استن لهم تقاليد حدثت من حرياتهم . فانه لا يكون قد خالف أوامر الله من حيث يخاطبه بقوله - والخطاب يسند أيضاً إلى أولياء الأمور الشرعيين الحاليين - (ما أنت عليهم بوكيل) (عليك البلاغ وعلينا الحساب) إلى آخر ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات تؤكد للإنسان حريته في التفكير ، وتحديد إلى حد معلوم حريته في العمل والجهر ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله . وحتى لا يغلب المسلمون على أمرهم .

فطاعة الرسول لله كانت طاعة مثالية بدليل اختياره . فإذا كان الله قد أمرنا أن نطيعه سبحانه ثم تتبع طاعته بطاعة الرسول فيما أمرنا أن نفعله أو نهانا عن فعله فإنه سبحانه وتعالى ، قد قرب الينا فهم أن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام كان مثالا يحتذى فقال فيه (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) .

أما الطاعة لولى الأمر من الناس فآتية بعد طاعة الرسول ، وطاعة الله لما أمر به الله أن يفعل ، ويكون فعله دليلا على صدوع الناس بالأمر . فإذا لم يكن لولى الأمر طائعا لله وللرسول ، فقد انتفى أمر الطاعة بالنسبة له على المسلمين تطبيقا للشرعية الاسلامية ، وأصبحت طاعتهم لولى الامر الذى ليس منهم ولا من عصبيتهم ، واجب فيما لا يتعارض مع أوامر الله وسنة الرسول ، أى أن يكونوا مضطرين لا باغين .

وقد كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم مثالا عاليا في السمع ، والطاعة ، وكانت حكمته وإدراكه ووعيه وإرادته خاضعة كلها لله الواحد الذى اشترى منه نفسه كؤمن . وتسليم الرسول لله بكل أمر صدر اليه من لدنه تعالى ، وأمانته فى التبليغ ، جعله امام السامعين ، وامام الطائعين ، وسيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، وكفى أنه الموصوف من لدنه تعالى « وانك لعلى خلق عظيم » .

وإذا كان المجتهدون قد اختلفوا فى جهاد الرسول فانهم لم يستطيعوا أن يعزوا اليه أنه كان ينطق عن الهوى أو أنه كان يفرق بين الناس بغير الحق . فرسالته كانت التبليغ دون اختيار... وقد اختبر الله ايمانه قبل أن ينزل عليه الوحي وقد صدع الرسول لما أمر به واتبع ما أوحى اليه وتوكل على الله .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم الى جانب اعتزازه بكرامته اعتزازا لم يعرف عن رجل قبله حتى أنزل الله عليه الآية (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) و (أنتم الأعلون ان

كذم المؤمنين) فان إنكار الرسول لذاته بالنسبة لله كان مثاليا .

ولقد تجلت عبقرية محمد على أصحابه ممن اهتدوا ، وعلى أعدائه ممن حاربوه ، وكانوا من أقرب الناس إليه رحماً وقبيلة . فلم يكن محمداً رجلاً يعادى لشخصه . فلم يأخذ عليه أحد أنه حابي أحد فهو لم يعرف المحاباة حتى مع فلذات كبده ، وإن كانت عاطفته قد غلبته في حب عائشة رضي الله عنها فهو لم يخرج على حدود طاعة الله فيما يملكه من القدرة على الفعل أى على الطاعة . « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما لا أملك » ومع أنه كان ممتلئاً بالعاطفة امتلاءً بالايان فإنه كان شديد الحرص على نفسه بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً . فإذا كانت العرب تعتبر أن في أفعال الرسول إقراراً لمبدأ السلام ، والتجرد عن الهوى ، فقد قال عليه أفضل الصلاة والسلام : « إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق » .

عاش في جذب الحياة وشطف العيش ، مرتاح الضمير ، غنى النفس ممتلئاً بالروح امتلاءً بالعزة والايان . وذهب في زهده ، وتشفه ، وتعويد الناس هذا الزهد ، أن وضع سنة حكيمة عرف بها هو وقومه حين قال : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ، وإذا كنا نأخذ هذا القول كحكمة من حكم الرسول فإننا لا شك نحب أن نستزيد من فهمها فنقول أن وراء هذه الحكمة حكماً كثيرة تتناول الحاسة كما تتناول الحاجة . فهو حين يصبر على الطعام حتى يجوع فإنه إنما يفعل ذلك بحاسته ... إن جائعاً قد يطرق الباب في أية لحظة ، فليجد ما يأكله ... وإذا كنا نصنع نحن ذلك حتى لا نتخم فإننا إنما نعمل بحاسة الطبيعة والطبع معاً ، لنهيء الجسد لنشاطه المعتاد .

فنحن لا نأكل حتى نجوع ، أى إلى أن نهضم ما أكلناه ، وأن نصرف ما هضمناه .
 وإذا أكلنا لا نشبع .. لأننا نجوع دائماً فنأكل . وإذا عزونا إلى الأكل معنى
 الطعام فإن الجسد يتغذى بما يأكله الانسان عن طريق الفم أو عن طريق الحلق .
 ولكن أفكاره وعقله إنما تتغذى عن طريق الادراك . وأنه إذا تغذى الانسان
 عن طريق الادراك ، فإنما يتغذى الانسان العاقل لا الانسان الحيوان . وبما أن
 الدين هو العقل فإن الانسان لا يشبع من الدين لأنه دائماً بسبيل البحث عن الغيب
 الذى ليس له به علم .

ولم يقعد الاسلام العقل عن أن يجاهر بالجهاد فى سبيل اقرار فكرة عن عقيدة
 أكملت للعقل شرعته فأصبح ديناً . لذلك ، لم تفر الدنيا الرسول بزخرفها ، فتواضع لله .
 وارتضى أن يكون مجاهداً فى سبيله . ولم يقعه عن الجهاد اجتهد . فسلمت عقيدته
 من الشك . وأصبحت يقيناً آمن به ودعا اليه بالموعظة الحسنة . فكان بحق ، الرسول
 الأمين . ولم يلق أصحاب العقائد المكتوبة ممن كانوا يعيشون فى زمن الرسول —
 الزمن الذى عاش فيه بينهم — اضطهاداً . بل على العكس ، فقد أبان لهم أن الاسلام
 رحب الصدر ، وأنه يشيع المساواة بين الناس كأسنان المشط .

فاذا قلنا بأن العقيدة الاسلامية قامت على السمع والطاعة لله من الرسول أولاً فإنها
 قامت لذلك . لى يسلم الكتاب من خطأ الاجتهاد الذى صاحب العقيدة المسيحية
 لما تناقلا التلاميذ ، واستقلوا بفهم مدلولاتها فأبلغوها للناس حيناً على أنها رسالة ابن
 الانسان ، وحيناً على أنها رسالة ابن الله حتى جاء الاسلام بالمعتقد الصحيح فنفى أن
 الله ولد فى الوقت الذى قرر بأن الله ما فى السموات ، وما فى الأرض ، وما بينهما

وما حولها. مما اضطر رجال الكنيسة إلى تعديل تعاليمهم فأنشأوا تفسيراً افتراضياً لله الواحد ، وقالوا بأن الله ثلاثة أقانيم هي : الآب ، والابن ، والروح القدس .. وكأنهم قد شق عليهم أن يتطور الخلق فيعرفون الله دفعة واحدة . وأن لا واسطة ولا موسوط بين الانسان والخالق . ولا تخفى الحكمة من ذلك الذي ارتأوه متمشياً مع منطق طبيعتهم وطبيعتهم ، فانهم كانوا يعيشون في عصر العجائب أى العصر الذى سبق عصر العلم ، وسبق عصر الهدى .

ألا أن حكمة تنزيل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، لم تعد تخلو من معنى فان الكتاب الذى جاء به قد تجلى فيه اعجاز وإيجاز اللغة . وشمول المعاني للأزمنة الثلاث. الماضى كذكر . والحاضر كقرينة . والمستقبل كبرهان . وقد تجلت أمانة الرسول فى تأدية الرسالة ، و بدت واضحة فى الابهام الذى أوضحته الكلمات المنقوصة التى جاءت فى أوائل بعض السور . والتى قال عنها المفسرون والمجتهدون أنها قسم ، وأنها بجمع الجمل تساوى لفظ جلاله . فهي على أية حال تعبر عن أمانة الرسول فى الأداء .. إذ لم يزد عليها حرفاً يحركها إلى كلمات مألوفة . فضلت من أسرار الله حسباً وردت . وهي فى اعتقادى قد جاوزت حدود الألفاظ والمعانى ، وستبقى الى يوم الدين حيث تعلم كل نفس ما لها . الا أنه امتحان للرسول اجتازه بنجاح فائق ، ودون وجل أو خوف . فما كان عليه أن يزيد على ما أنزل الله . ولم يدفعه الزهو ، ولم تأخذه العزة بالاثم ، فيجتهد فيما ليس له به علم . ولم يكن لورود هذه الكلمات فى الكتاب على الصورة التى جاءت بها ، ما يجعل صدر الرسول يضيق بها و ينقد الشعراء والبلغاء من العرب ، لأنه انما كان ينفذ أوامر الله التى جاءت عن طريق الوحي ، مستمعاً طائعاً .

وهكذا صار السمع والطاعة ، معجزة الرسول الكبرى ... وعلى السمع والطاعة
قام الاسلام . وأصبحت القاعدة : أن يأخذ أولياء الأمور عن الرسول ما أمر الله
أن يأخذوه ، وأن ينتهوا عما نهى عنه ، متمثلين بالرسول الكريم . وأصبح لزماً على
على أولياء الامور أن يرجعوا فيما يأمر به الناس الى الفريضة ، والسنة .

إن أوائل المؤمنين والصحابة رضى الله عنهم جميعاً كانوا كلما اختلفوا فى أمر رجعوا
الى الرسول ، فلما اختاره الله الى رفقة بعد أن أدى مهمته ، لجأ المستفسرون والائمة
الى الفرض والسنة . وحاولوا ما وسعوا أن ينهلوا من اليسر ما استطاعوا . فمن وقف
منهم عند حد ، ولم يطمئن الى أنه أجاب ، أو أصاب ، اختتم بحثه بقوله الله أعلم .
وكان منهم من حالت بينه وبين التطور الفكرى عادات وتقاليد ، وظروف حالت
دون الانطلاق بالعقيدة الى الهدف الذى رسمه الله فى كتابه حد الله
الصراط المستقيم .

وتعطلت السنن والفروض بعد الخلفاء الراشدون . ويسر بعض ولاية أمور
المسلمين لأنفسهم من متاع الدنيا ما أنساهم عذاب الآخرة . وتمادوا فى نهم النعم حتى
أصبحوا مضرب الأمثال فى الزهو والبذخ ووقف العلماء الجامدون عند
علمهم خوفاً على الرسالة أن يتلفها الماجنون من حكام الارض الذين اختاروا
الدنيا دار بقاء .

وسار العرب المسلمون فى ركب الحضارة ، واتجهوا غرباً وشمالاً وشرقاً وجنوباً ،
وفتحوا الأمصار .. وبلغ من فتوحهم وتوسعهم ، أن انقطعت الصلات بين بعضهم
البعض .

وتعددت لهجاتهم وأماراتهم وولاياتهم . وكثر المنادون بالاستقلال بينهم .
فتفككت وحدتهم ، وأصبحوا ، وهم أقليات متفرقة ، عبيداً للمحتلين والمستعمرين ،
الذين اقتضوا عليهم من شواطئ أوربا أو من أدغال آسيا ، ودقوا بين كل برزخين
أثنين أسفينا ...

ولم يفظن العلماء وسدنة الرسالة إلى أنهم يسировون في طريق الاضمحلال . فتدخل
اليهود ، والنصارى والوثنيون ، كل منهم يعنى إقرار وجهة نظره ... فاختلفت المثل
العربية بالأعجمية ووقف المسلمون في وجه القائلين بترجمة القرآن إلى اللغات بينما
لم يعق هذا الهنود والأوربيين عن اختيار ما يناسبهم من المترجمين . هادفين إلى
إقرار عقائدهم متحدين علماء الاسلام ، القائلين بعدم ترجمة القرآن .

ولعل للعرب المسلمين عذرهم إذ خشوا أن ينتشر الاسلام في العالم فيؤمن به السواد
الأعظم من شعب أوربا (الغرب) ، وشعب آسيا (الشرق) ، فيصبح العرب المسلمون
أقلية يحكمها الأعاجم والافرنج باسم الدين ...

واقضت أزمنة ... ودالت دول ... وظلت العقيدة الاسلامية كما تنزلت على محمد
ابن عبد الله محصنة في الكتاب المبين .. القرآن ...

وبينما كان العلماء والمفكرون في أوربا يهيئون الأدهان لفلسفات وعقائد
جديدة ... كان العرب يغطون في نوم عميق لا يوقظهم إلا غداء الجسد ... وجودية
بهيمية تعيش لتشبع غريزتها ، كأن الدين لم يصبح شرعة للعقل .
فإذا راحت السكرة وجاءت الفكرة ، عادوا الى الكتاب ... القرآن ... ينشدون
تفسيراً لآلامهم ، وارتواء لظمئهم .

وتشاء الحكمة الإلهية أن تهديهم...! ففي كل مرة يقرأون فيها القرآن يجدون أنهم كانوا متخلفين... فالفرنجة، والهنود، والمغول، والروم، والزنوج، والصينيون يتقدمونهم، ويظنون هم في المؤخرة... ماذا عليهم إذا اندمجوا ليرشفوا من مناهل هؤلاء الأعراب؟ لعل في علومهم ما يفسر الأحلام، ويحقق المآرب...!

وفي الوقت الذي كان العرب يبحثون عن ميسرات وجودية، تهضمها تعاليم الإسلام، كان الفلاسفة من اليهود، والنصارى، والملحدين، يبحثون عن آفاق جديدة لعالمهم الذي حدده القرآن بالحياة الدنيا.. وهكذا تاهت الحقيقة بين المسلمين، والاعاجم، وأصبحت الأمور اجتهداً للانتهازيين والمساوريين. وانكفأ الغطاء، وراح كل منهم يعمل في الخفاء.. وراح المتأرجحون بين هؤلاء وأولئك، ينبذون الأصول الواضحة وينشرون الكتب والتعاليم التي أبلغت لهم أو سمعوا بها عن العقائد والديانات، فأنشأ اجتهدهم وابتكارهم مذهب الكلاميين، والفسفستائية. وقنع رجال المسيحية، والإسلام من العرب بالانطواء والانزواء والتأمل. واستمر الحكماء الدينويون سكوت رجال الدين فنشروا عقائدهم الاقتصادية، والاجتماعية. فلما قامت الشيوعية في روسيا دقت الكنيسة نواقيس الحزن، وراحت تصب اللعنات على أعداء الكنيسة بدلاً من أن تنبه لاجتاث جذور الخطأ والخطيئة، التي كان يعيش فيها راسبوتين... إن راهباً واحداً فسق في روسيا ألب شعباً من مائتي مليون على الكنيسة، ولم تستطع الكنيسة أن تنشئ فرقة واحدة للدفاع عنها..

إن الشيوعية المعروفة حالياً هي التي نبتت في روسيا منذ عهد فلاديمير الملاك أو

القديس كما كانوا يسمونه — أول من تنصر من أمراء الروس . وهو ابن سوفيا
توسلاف . أول من تعرض للاقطاعيين منتقداً تصرفهم . إذ كانوا قد جعلوا من
أرض روسيا مزرعة للرجال يربونهم حتى سن المراهقة ثم يبيعونهم للعرب ، ولغيرهم
من الدول المجاورة لقاء مبادلة عينية كأقراط النساء والأساور والقلادات وبكمية من
اللوز ، والجوز أو القصدير أو الرصاص . وكان ذلك بعد ظهور المسيحية بـ ٩٧٠ سنة
وبعد محمد بثلاثمائة عام .

ولو قبلنا صفحات التاريخ لما اتهمنا علماء الاسلام ، وقفهاء في القرن الثالث للهجرة
بالانحراف في ثقافة القرآن نحو الفلسفة اليونانية القديمة أو الفلسفة الرومانية اللاتينية
أو الفلسفة الهندية أو الصينية . فقد كان الفقهاء في ذلك العهد أمناء على الرسالة لدرجة
الغلو . إن دعوة شعب للاسلام كالشعب الروسى لاغنى له عن الخمر باعتبارها مورداً
للتدفئة مسألة تحتاج للبحث الدقيق .. فبلاد الروس واقع معظمها في المنطقة المتجمدة
الشمالية ولا غنى للناس هناك عن شرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير . لأن القيم الحرارية
والبروتينية التي يحتويها هذا اللحم بل هذا الشحم تفوق بمراحل قيم لحوم الأنعام
على إطلاقها . فالبعثة التي اتجهت إلى الروس لم تقدر أن تقنع فلاذيمير باعتناق
الاسلام بدلا من النصرانية التي أقبل عليها الروس بعد أن اطمأنوا إلى قول رسول
قسطنطين مطران القسطنطينية حاضرة حكم الروم : « إن ما يدخل الفم لا ينجس
الإنسان ، ولكن الذي يخرج منه » . « وإن قليلا من الخمر يفرح قلب الانسان » .
وهذا القول ليس من اختراع الأسقف . بل هو تعبير في الأناجيل والتوراة
ورد على لسان السيد المسيح وداود النبي ، كتعليم يراد به إصلاح الذات الانسانية ،
وتطهيرها حتى لا تنضح سوءاً . وهو تعبير على حد قول الديلو ماسيين « ملفوف »

وقد نعتبره نحن تعبيراً معقداً لأنه مبنى على نقص فى الطبيعة يراد استكماله على صورة ما قد تكون الحمر . وقد يكون لحم الخنزير ، وقد لا يكون لا هذه ولا تلك . ولكنه نقص فى العلم . إذ لم يكن الناس فى ذلك الوقت قد توصلوا بعد إلى عقاير طبية تساعد الإنسان على الاستزادة من قيم حرارية غير مشكوك فى حلالها أو حرامها . ومع ذلك ، فإننى لا أرى أن العرب الذين أسلموا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعدها إلى الآن ... قد كفوا عن تعاطى الحمر رغم أن بلادهم واقعة فى المنطقتين المعتدلة الشمالية ، ومنطقة خط الاستواء . أى أن حاجتهم إلى الحمر تختلف عن حاجة الروس لها .

وقد جرى العرف عند كافة الشعوب على اعتبار الحمر مسكراً . وأن الاسلام حين يحرمها فإن المسيحية واليهودية لا تحلها . وإذا قال الاسلام بتجنب الحمر لأنها رجس من عمل الشيطان . فإن المسيحية واليهودية لم تقل بنفعها ...

ولا خلاف أن كل الشرائع تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . ومع ذلك نرى أن الشعوب لا تربط بين العقيدة فى ممارستها بعامل الخوف من الله بقدر ما تربط بعامل الخوف من الحكومة التى هى على أية حال السلطة الظاهرية المباشرة . كما هو الحال فى المملكة العربية السعودية ، حيث لا يزال الاسلام قائماً على السمع والطاعة .

أما فيما عدا ذلك من الممالك ، والجمهوريات ، والمستعمرات ، فإن القوانين الوضعية قد أهملت كل ما يتعلق بالدين والشريعة ، حتى أنك لتقرأ القانون فلا تجد اسم الله مذكوراً فيه إلا عرضاً .

وما دامت الأحكام تصدر باسم الملك أو باسم الحكومة . فإن السمع والطاعة لولى

الأمر قد تحدد في القانون الوضعي ، وأصبح الاحتياطي في تفادي القانون متعادلا تعادلا عكسياً مع الجهاد في سبيل نشر عقيدة سماوية .

وقد يظن القانون الوضعي فيحد من حرية الناس في ممارسة العقائد — كما حدث في روسيا في العشرين سنة الأخيرة — أي بعد أن مرت بفترة اختبار متساوية تقريباً ، ولم تنجح في اخماد صوت الله ، أو صوت العقيدة . وكانت هذه الفترة الأخيرة — أي فترة العشرين سنة الماضية من سنة ١٩٣٥ إلى سنة ١٩٥٥ هي أزهى عصور العلم في التاريخ الحديث . فقد توصل العلم إلى اختراع أحدث ، وأخطر سلاح مدبر للكون .. القنبلة الذرية .. ومع ذلك فقد انتصرت العقيدة مرة أخرى على العلم وعلى الناس حين تساءل زعماء الشعوب عما ستكون عليه النتيجة إذا ما أصابهم حمى الكفر بالنعمة فأريقوا الدماء ، ونسفت المعمورة ، وضاعت آثار المدنية ... وما هو المقابل الذي سيحصل عليه الانسان ثمناً لدمه ، ليريقه على مذابح شهوات الحكام ؟ وبدأ الزعماء السياسيون يقدون ثقة الناس بهم ... ثقة الجماعات الدينية ، والجماعات العالية التي كثرت مطالبتها في الآونة الأخيرة .. أما العلماء فقد كرسوا جهودهم للعلم والمخترعات ، متجاهلين ما سيجره علمهم من خوف على الناس . وإذا كان الدافع لاختراع الآلات في يوم من الايام هو زيادة الانتاج ، وتهذيبه — أي أن يتخذ شكلاً واحداً على تعدد أشكاله ، فان تطور الصناعات ، والمخترعات برغم زيادة عدد المنتفعين بها ، والمستهلكين لها ، قد أنشأ أزمات اقتصادية خطيرة في ظروف متعددة مربية بسبب تحول تفكير أصحاب رؤوس الاموال إلى زيادة رؤوس أموالهم دون ما نظروا أو اعتبار للعواقب . فقد كان المفروض ألا تزيد كمية السلع المعروضة على الطلب حتى لا تتعطل الايدي العاملة مرة أخرى بسبب الانتاج الآلي المتزايد عن الحاجة

أو على الأقل كان يجب أن يرافق ظهور ظاهرات الازمات المنسببة عن زيادة الانتاج ،
 البحث عن مواطن جديدة لتصريف المنتجات . وقد يكون هذا قد حدث . ولكن
 الطاعة للقانون الوضعى فى كل دولة من الدول — كالحوائل المجرىكه وقوانين
 العملة والاكتفاء الذاتى — حال دون انتفاع الشعوب بثمار العلم
 لان رأس المال كان يسيطر على إرادة الناس سواء كانوا من أصحاب رؤوس الاموال
 أنفسهم أو من الخاضعين لأوامر الدولة التى يسيطر عليها أصحاب رؤوس الاموال . مما
 ألجأ العمال الى وسائل العنف لاقرار حقوقهم . بعد أن علمهم رأس المال درساً فى
 الجبن لاقبل للعمال بتطبيقه عملياً إلا بالاضراب والحركات العنيفه .

ولم يكن رجال الدين فى أى جبهة من العالم ، يملكون الوسائل المادية لاختضاع
 الحكومات للحدود الشرعية ، وارضاء الجماعات التى تعيش فى الواقع المجرد ، فقد
 قامت جماعات جديدة من بين الانسانيين تعمل على تهيئة الوسائل ، واستنباط
 الطرق المؤدية إلى إيجاد مجتمع أفضل عن طريق التعاون الاجتماعى مما أفقد رجال
 الدين صولتهم التى كانت لهم فى الايام السالفه ... ولعل نابوليون بوناپرت كان من
 الأسباب المباشرة فى تقلص المسيحية اللاتينية فى أوروبا التى كانت خاضعة لبابا روما
 أو أضعافها ، من حيث ترهيد الناس بها . ونشوء مذاهب مسيحية جديدة أخذ
 معظمها عن البروتستانتية ، التى تزعمها مارتن لوثر ... الذى تجلت فلسفته بالتطور
 بالمسيحية ، الى نبذ التماثيل ، والاصنام ، (الايقونات ، وما شاكلها ، وصور
 القديسين) من الكنائس . وفى إزالة الصلبان عن قبائها وهى تكاد فى
 وضعها أن تخاطب السماء متحدية أن ترسل للناس مخلصاً آخر .. !

وقد ألغى مارتن لوثر كرسى الاعتراف من طقوس الكنيسة ، ولكنه أقام مقامه

جماعات التبشير السريه ، التي تحاول بعلم النفس الاجتماعى اصلاح المجتمع دون ما نظر إلى تسلسل عصبى . وهكذا اندمجت مصالح أقوام مع أقوام أخرى ، ونشأت المجتمعات المتعارضة التي يعادى فيها الاخ أخاه باسم الخير والانسانيه . وخيل للدعاة البروتستانتية على اختلاف مذاهبهم ، أن عجلة الشر قد توقفت ، أو على الأقل قد تعطلت قليلا . وزاد ميل الناس إلى التكتل الذى خدعتهم ظواهره وأصبحت الحياة بالنسبة لهم تجربة مرة . فراحوا يتدعون وسائل للتسليه فكانت الوجوديه السارترية التي ضربت بتعاليم الكنيسة عرض الحائط وقالت بأن الانسان سيد نفسه ، وأنه حريته ! ومثلما تأثرت المسيحية الكاثوليكية — اللاتينية — بما حدث فى فرنسا إبان ثورتها ، وكما لا تزال آثاره تظهر للآن ، كذلك تأثرت الأرثوذكسية التي كانت قاعدتها موسكو بأعمال راسبوتين ، وحماية القيصر له . فنشأ النظام البلشفي أو الشيوعى الذى ألغى الطقوس الدينية والكنائس على إطلاقها ، ليقم مكانها عقيدة اقتصادية تدور حول أن الناس لا يأكلون الله . بل يأكلون الخبز واللحم والبقول . ولا يشربون الملائكة والقديسين والرسل . ولكن يشربون اللبن والماء والخمر . وفى الوقت الذى كان يجرى هذا فى قلب أوروبا وشرقها وغربها ، كان العالم الاسلامى يعيش فى ظل الاستعمار الذى لم تكن تعنيه العقائد السماوية ، بقدر ما كانت تعنيه مصلحة شعوبه الاقتصادية .

وانبرى من بين المسلمين مجاهد آمن بالله وبالرسول وبعبطيته ، فراح يعمل فى دأب واجتهاد ليخلص الجزيرة العربية من الانحلالية التي بدأت تدب فى أوصالها بعد أن وهنت قوة الخلافة الاسلامية فى تركيا فاستطاع بمجد جبار أن يسيطر على الارض المقدسة ويقطع دابر الوصوليين منها . ذلك هو المغفور له الملك عبد العزيز بن

عبد الرحمن آل سعود الذى قال عنه المؤرخ الألمانى الكبير دا كوبرت فون ميكوش فى فصل من كتابه « عبد العزيز » تحت عنوان (الاخوان) : « أنه يحكم بلاداً واسعة مترامية الاطراف ، ولكنها مجموعة من السكان واهية الصلات لا تربطها سوى شخصية الامير وحده ، وليس لها غير ذلك ما يعصمها من الانهيار ... إنه صاحب قوة ليست بذات معنى إلا إذا كانت وسيلة لا غاية لتحقيق ما يعتلج فى صدره من أمانى ، وآمال . فقد وضع الحجر الاساسى فى صرح الدولة ، فوطد الامن وأشاع العدل ، مركزاً ذلك كله على أساس غير ثابت من الرهبة ، والخشية من العقاب الصارم ، وفرض احترام الانظمه والقوانين على الرعية فرضاً ، بغير أسس ثابتة الدعائم راسخة الجذور تضمن استمرار جهاز الدولة فى تأدية مهماته فى حالة تراخى السكاشة الحديدية التى يضغط عليها بن سعود بقبضته الصارمه ، والتى هى إن تراخت لاي سبب من الاسباب — والبقاء لله وحده — فمن المحتمل كل الاحتمال أن يتداعى البناء وتسود الفوضى ، وينهار كل شئ . »

ولتلك النهاية المؤسفة سوابق متكررة فى تاريخ العرب ، فسرعان ما تنهار دولهم بعد قليل من ذهاب مؤسسها بجيل أو جيلين ، مما أشاع الرأى بأن العربى يفقر على الدوام إلى العقلية البناءة ، شأنه فى ذلك شأن رمال صحرائه المتقلبة مع هبوب الرياح ...

والوهابيه نفسها لم تعد ضامناً كافياً لذلك فأصبحت محدودة التأثير فى النفوس ، ولم تعد تعاليمها إلا مجرد عقيدة رمزية يؤدى الوهابيون شعائرها تأدية فيها من المظاهر أكثر مما فيها من الايمان الصادق ... فقد أيقظت العربى فى بدء ظهورها يقظة عابرة وخبث نارها فى نفسه بعد ذلك بسرعة ليعود إلى سيرته الفوضوية الاولى .

وعجزت الرابطة الدينية عن الحلول في تفكيره محل العصية القبلية ، السد المانع في وجه تكوين وحدة الدولة ، والتي كانت تحول دون اعتراف القبيلة بسلطة عليا تفرض نظاماً واحداً على الجميع . وكان سكان الجزيرة يرون في ضمان وسائل عيشهم والمحافظة عليها ، المعنى الوحيد لقيام رابطة داخل كل قبيلة تميل مع الظروف .

وحيث تجد أن مصلحتها أضمن وأوفى . ومن هنا كان بسبب تقلبهم على حكاهم الذي يصل في كثير من الأحيان إلى درجة الخيانة دون أن يشعروا هم أنفسهم بأنهم يقومون بعمل قد يوصف بعدم الوفا وقد خبر بن سعود ذلك كله خبرة كافية فكثيراً ما كانت إحدى القبائل تحارب إلى جانبه ثم تعود لتحاربه في صفوف أعدائه ، وتتخلى عنه ، حتى في أبان المعركة متى لاحت لها المصلحة الخاصة في انقلابها ولاحت لها في الصف الثاني غنيمة أوفى ، وخطر أقل . ولم يكن بالمستطاع ضمان استمرار وفاء زعماء القبائل ، والمتنفذين فيها إلا بالقوة المرهبة أو الهبات ، والأعطيات ، فبل يصح ، أو هل يمكن اعتماد هذه الأساليب أساساً لبناء دولة صحيحة ؟

وتساءل بن سعود بكثير من التمحيص عن أسباب فشل الدولة في البلاد العربية . فاسترجع أخطاء الحاكمين السالفين ، حتى تكون لديه منهاج عظيم اتضحت تفاصيله تدريجياً في ذهنه ، وجاء ثمرة تفكير طويل عميق .

وأدرك أن حياة البداوة غير المستقرة هي العائق الأساسي لمهمته ، ورأى أن عليه وضع قواعد انقلابية جديدة للحياة في الصحراء العربية قوامها أن يصبح البدو الرحل موطن مستقر ، وسقف ثابت يعيش المرء في ظله ، فيبيع لهذه الغاية جماله ، ويتخلى عن خيمته الجوازة السوداء المنسوجة من وبر الماعز ، لينصرف إلى زراعة الأرض ..

أي أن منهاج بن سعود كان بعبارة موجزة تحضير البدو بما يتطلبه ذلك من تحول في

حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية ليصبح ذلك التحول بالتالى ، وسيلة لا غاية تحرر البدوى من عشائريته التى يدين بها كرابطة وحيدة تربطه بأبناء عشيرته دون سواهم من المواطنين على أن تحل محلها رابطة وطنية شاملة أساسها وحدة العقيدة الدينية الوهابية بالدرجة الأولى — ومن ثم الفكرة القومية.

ذلك لأن العربى كان ومازال تحسسه بالدين أقوى بكثير من تحسسه بالشعور القومى . الامر الذى غاب فى ذلك الحين عن دعاة القومية العربية فى سوريا ، والعراق ، أو هم تجاهلوه بغية اكتساب العناصر غير المسلمة إلى حركتهم ، ومادامت للوهابية كل مميزات الوقاية من تسرب النفوذ الأوروبى فقد كانت الدعامة التى ارتكز عليها بن سعود لتشييد دولته الجديدة . . . ومن هنا برزت حركة — « الإخوان » — إخوان التوحيد — التى هى ، ولا شك من أعظم ما ابتدعه ذهن بن سعود الجبار فى حركته التجديديه . وقد وضع لها منهاجاً دقيقاً بعد أعمال الروبه ثم باشر بالتنفيذ . . .

* * *

فى أطراف مقاطعة القصيم ، وعلى الطريق الممتدة من السكويت إلى « بريدة » تقوم منطقة منعزلة مهجورة تسمى « الارطاويه » ليس فيها سوى عدد قليل من الآبار ، تربها القبائل الرحل فى فترات معينه لرعى مواشيا ، وتطرقها قوافل التجارة أو المسافرين للتزود بالمياه ، ولم يكن فيها عدا تلك الآبار و بضع من أشجار النخيل حولها أى أثر من آثار الحياة ، وكانت هذه البقعة من الجزيرة هى التى وقع عليها اختيار ابن سعود لتجربته الأولى فى عملية تحضير البدو وتوطينهم ، فجاء أفراد من عشيرة « مطير » المجاورة وغيرهم من بدو العشائر الأخرى يعلنون استعدادهم للاستيطان فى الارطاويه لتأسيس أول بلدة فيها ، واشترك معهم عدد من الفلاحين من سكان الغرب تولوا تدريب البدو على الأعمال الزراعية فى الأراضى التى وزعها

عليهم ابن سعود بنفسه كما حدد نظاماً لتوزيع المياه وقدم لكل منهم بندقية وعتاداً ونظم لهم سجلات للنفوس على أن يلبوا نداءه متى دعا داعي الجهاد إلى القتال وهكذا أسست أول بلدة تجمع خليطاً من مختلف القبائل تربط بينهم رابطة التوحيد جوهر العقيدة الوهاية ، ومن بعد رابطة الولاء للدولة ولأمير البلاد . وكانوا يسمون كل بلدة أنشئت على ذلك الشكل « هجرا » وبفضل جهود ابن سعود أخذ عددها يتكاثر فيرتفع بين الحين والحين في بقعة من الأوطاء أول ما يرتفع بناء المسجد . ثم تبنى حوله البيوت من الطين المحفف فيستقر فيها البدو الرحل لأول مرة في حياتهم منذ مئات السنين منصرفين إلى الزراعة وجنى ثمرات الأرض في نطاق من التنظيم الذي أوجده ابن سعود . وقد زاد في نجاح المشروع وتكاثر «الهجر» إن كثيرين من البدو قد ملوا حياة التنقل وققدت كل لذة بالنسبة إليهم بعد أن حرم ابن سعود الغزو وأصبح ذلك في عداد المخالفات التي تقع تحت طائلة القانون فوجدوا في حياة الهجر ما يروى ظمأهم إلى العمل وحب المغامرة ، بالولاء لعقيدة التوحيد ، والجهاد في سبيلها والإخلاص المتناهي للأمير الحاكم فإذا بأبناء الصحراء الذين لم يدينوا حتى الآن بالولاء لأية سلطة إلا سلطة المصلحة الخاصة موالين لفكرة الجهاد من أجل عقيدتهم يسمون أنفسهم أبناء التوحيد ، إخوان من أطاع الله ، ولعل تسمية موطنهم الجديد في الأوطاء بالهجر مشتقة من كلمة هجرة ... هجرة القبيلة والانفكاك من رابطتها أفراداً وجماعات ليصبحوا أعضاء في جماعة جديدة كان عليها أن تنمو ، وتوسع حتى تشمل الشعب بأسره .

حقق ابن سعود القسم الأول من مناجاه في العام ١٩١٢ ، ولكنه لم يلبث بعد قليل أن جابه بعض صعوبات غير متظرة ، فإن المهاجرين أخذوا يشعرون بأنهم جند الله

قبل أن يگونا جند ابن سعود ، ويحمسون الجهاد في سبيل العقيدة الدينية أكثر من تحمسهم لواجباتهم الدنيوية في زراعة الأرض وعوضا عن ذلك كانوا يظلون في أيام السلم عاطلين عن العمل منصرفين الى الصلاة وحدها ، تاركين للنساء مهمة العناية بالزراعة بل أصبحوا يعتقدون أن كسب المادة شيء يجب أن يحتقره المؤمن الصادق ، فيظل فقيرا متقشفا ، زاهدا ، وهي نتيجة لا تتسجم في شيء مع ما توخاه ابن سعود إذ توخى أن تسكن « الهجر » نفسها بنفسها مما تنتجه فلا تكون عالة على الدولة بل مثالا يحتذى لبقية السكان لما يمكن أن يسفر عنه الجد والنشاط من فوائد ويحفز الآخرين على هجر حياة البداوة والمساهمة في الانتاج .

ولم يكن ثمة بد من الالتجاء الى علماء الذين لتحكيمهم في صحة اجتهاد الاخوان فافتوا بعد مراجعة الكتاب المقدس - القرآن - وجميع الاحاديث النبوية الشريفة بأن ليس في كسب المادة ما يتنافى مع الشرع بل العكس هو الصحيح فان مؤمنا غنيا خير من مؤمن فقير . حتى أن أبا بكر الصديق كرم الله وجهه لم يحتقر المادة بل كان يملك ثمانية آلاف من الأفراس والخياد والجمال . وحيال هذه الفتوى وحدها كان يمكن اقناع الاخوان بالاقلاع عن خطتهم الاولى والتخلي عن البطالة والجد في جنى الثروة من جوف الأرض فازدهرت « الهجر » وتكاثر سكان « الأرطاوية » الى ان زاد عددهم على العشرة آلاف ، حتى ان الناصر المشهور فيصل آل الدويش رئيس عشيرة مطير بالذات عقد لواء الصلح مع ابن سعود وانضم متحمسا الى حركة الاخون ، بعد أن كان عامل هدم وعنصر دائم الثورة فقدر له ابن سعود وفاءه فولاه على الأرطاوية بكاملها وسكن الدويش أبدي في مهمته الجديدة ضروبا من العناد والجوح ، والطموح المتأثر فيه الى السيطرة ، بحيث

اوشك فيما بعد على أن يطيح بكل ما بناه ابن سعود . وشجعت الاختبارات الناجحة في الارطاوية ابن سعود على مواصلة توطين البدو فقامت « المهجر » في أما كن مختلفة من أمارته في الغطف ، والدكناء والذهنية ، والمبيد ، والسجيرة وغيرها إلى أن بلغ عددها السبعين في الحرب العالمية الأولى وخطا بذلك خطوة واسعة في طريق التغلب على النزعات القبلية ، وتحقيق الوحدة القومية فأصبحت لبناء الدولة أسسه المتينة من أحقاق الحق وإشاعة العدل ، واحترام سلطة القانون . وكانت خطوته الثانية الاحتفاظ بقوة مساحة دائمة لاستخدامها عند الضرورة ولما كانت بلاده فقيرة تعجز عن الانفاق على جيش منظم فقد وجد في الاخوان بغيته وجيشه المسلح الذي يدين له بعد الله بالزعامة الدينية ، والدنيوية وبالولاء والطاعة التامين . والذي تزايد عدده إلى الثلاثين ألفاً من المحاربين الأشداء ، موزعين في مناطق عديدة من لامارة على أتم استعداد لتلبية ندائه ، ولا يكلفونه سوى نفقات تزويدهم بالسلاح .

اوأما أسباب المعيشة فيؤمنونها بسواعدهم مساهمين في الوقت نفسه بازدهار البلاد ... فالاخوان اذن مع من ينضم اليهم من المتطوعين هم الجيش في زمن الحرب ، وقوة الشرطه التي تسهر على استتباب الامن في أيام السلم وتتولى تأنيب من يتمرّد على الدولة من القبائل الامر الذي لا بد من حدوثه في بعض الاحيان .

والى جانب ذلك كله كانت للاخوان في نظر ابن سعود مهمة جليلة أخرى هي جعلهم نواة منظمه لشعب منظم متحد . وكان لا بد من تثقيفهم حتى يتمكنوا من تحقيق مهمتهم ، فأوجد جماعة « المطوعين » وهم عبارة عن شباب من الاخوان يتلقون العلم على أيدي علماء الدين ثم يتوزعون في « المهجر » يدرسون الناشئه ،

ويقتونهم تعاليم الوهابية. ثم اتسع نطاق مهمات المتطوعين فأرسل الكثيرين منهم الى مختلف القرى يؤسسون خلايا جديدة للإخوان ، ثم انتشروا خارج حدود نجد يبشرون بالعقيدة الوهابية ، ويمهدون الارض لانتشارها .

وفي خلال ذلك كان الهدوء مخيمًا في الجانب الغربي من امانة نجد ، فقد انفجرت الاغتيالات السياسية العائليه بعد مقتل عبد العزيز بن الرشيد في المعركة ضد ابن سعود ولم يبق على قيد الحياة من أفراد الاسرة الحاكمة ق حائل سوى أمير يدعى سعود بن الرشيد يتولى الحكم فيها بوصاية خاله « زامل بن سهيان » الذي رأى أن من الافضل اقامة علاقه طيبه مع ابن سعود فلقى من جانبه رغبة في ذلك متبادلة مبعثها أن أنظار ابن سعود كانت في ذلك الوقت متجهه نحو الشرق حيث يتسع أمامه المجال لتوسيع حدود أمارته وكان عليه في الوقت نفسه أن يأمن الخطر من الخلف متهيئًا في حذر لمقاولة عدوه الخطير في الجنوب ... الشريف حسين بن علي ، الذي لا بد من مخاصمته إن عاجلا أو آجلا » اه . (دا كوبرت فون ميكوش) .

هذه لمحة من لمحاتي في العقيدة والإسلام ، كنت أود الاحتفاظ بها . ولكني آثرت أن أقتل اليك أيها القارئ ، الكريم لمحة عن إخوان التوحيد الذين أنشأهم ملك عظيم من ملوك الاسلام عرف بإصالة الرأي ، وطول الباع في السياسة التي يجب أن يكون عليها الملك المصلح الذي يرغب في تطبيق الشريعة على الشعب الذي يحكمه حتى لا ينسى الشعب عقيدته .

ولعل إخوان التوحيد في المملكة العربية السعودية كانوا هم نواة فكرة للإخوان المسلمين الذين أنشأهم المغفور له حسن البنا في عام ١٩٣٢ وكانوا في أول نشأتهم

جماعة آمنت بالله وبالرسول ، وراحت تعمل في دأب ، واجتهاد للحرم ما انفصل
من علاقات بين المسلمين فقد كانت الفرصة سانحة ليقظة اسلامية اجتماعية انسانية
مباركة لتحرير الناس من الخوف ، والجوع ، والعوز .

بدأ الإخوان المسلمون في تكوين جماعتهم في بداية نهاية فترة الاختبار التي
كانت تمر بالشعب الروسي في ظل الحكم البلشفي - أي قبل أن يؤلف السكومنفورم
وتنتشر الدعوة البلشفية العالمية - قبل أن تتمكن العقيدة البلشفية من التغلغل في
نفوس الطبقات المنحطة اجتماعياً .

وكانت النازية في بداية نهاية كفاحها للوصول إلى تقلد الحكم في ألمانيا
وقد نجحت في تلك السنة .

وكانت مصر في إبان تلك الفترة ترزح تحت نير الأقلية التي آلت على نفسها
أن تصفي المنازعات القائمة بين الحديوي عباس الثاني وأحمد فؤاد الاول ليستقر الامر
نهائياً في مصر لاسرة أحمد فؤاد ...

وراحت جماعة الإخوان المسلمين تعمل في الجهر والعلانية مستفيدة من
اضطراب السلام في نفوس الناس نتيجة تخطيط قواد السياسة في مصر والعالم ، في
تخطيط المبادئ الاقتصادية والاجتماعية. فنجحت في إيقاظ النيام ، واكتسبت
الجماعة ملايين الانصار ، والاتباع في جميع البلاد الاسلامية فضلا عن مصر .

وأحست اليهودية العالمية الممثلة للرجعية بخطر قيام جماعة مخلصه لله تدعو لدين
الله فأطقت دعايتها ، ووسائلها المادية ونجحت في جر جماعة الإخوان المسلمين الى
الفتنة المادية ، وتطورت الدعوة الى الله الى دعوة لدين ودولة ...

ولم يفتن دعاة الإخوان المسلمين الى ما تدبره اليهودية العالمية التي لا تعترف بالاسلام

ولا بالمسيحية. فراحوا يعملون متحدّين حكومات الدول الاسلامية التي لا تتخذ القرآن دستوراً لها فلكّيت الدعوة في بعض الاحايين اضطهاداً زادها قوة بل زادها انتشاراً ...

وقد أنشأ التحديّ حقداً ان لم يكن قد أيقظ الحقد الدفين ... وبدأ الإخوان في مصر يعملون للاستيلاء على الحكم . وبدأت الاغتيالات السياسية في مصر والبلاد العربية تزداد عنفاً . ودارت الدائرة فأطاحت الرجعية بالرجل الذي آمن بالله ، وبالرسول . وخلفه في قيادة الجماعة صنّعة من صنائع الرجعية كان من رجال القانون - ومما يؤسف له أنه - أي المرشد الجديد - لم يكن يدري أنه من صنائع الرجعية ... وكان على رأس مصر ملك فاسق تحيط به الفاجرات من النساء والغواني ، والفجار من رجال السياسة ، والبلاط ... استطاع أن يقع المرشد الجديد أنه المرشح الموعود للرياسة بعد لحظات قريبة و ... خرج المرشد من لدن الملك شاكراً داعياً المسلمين الى السمع ، والطاعة لولى الامر .

وجأة ، ودون توقع للأحداث قامت حركة الجيش ، وطرد الملك قبل أن تصبح كتاباً موقوتاً للمرشد ...

وتصفي حساب الاحزاب . وحساب الملك ، وأمرته ، وحاشيته ووزرائه ، وظن الناس أن الإخوان المسلمون هم أصحاب الميمنة في حركة الجيش الى أن كانت محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر ... ولى الامر الذي آلى على نفسه أن يقود حركة تحرير المسلمين من أغلال الماضي . ومن مفاصد الحاضر . لكي لا يعيشوا في مستقبل مظلم ... وما كادت أنباء المؤتمر الاسلامي تصل الى آذان الرجعية حتى

هبت تعلن سياستها بسلخ العراق من جامعة الدول العربية. ليستقر الامر لاسرائيل...

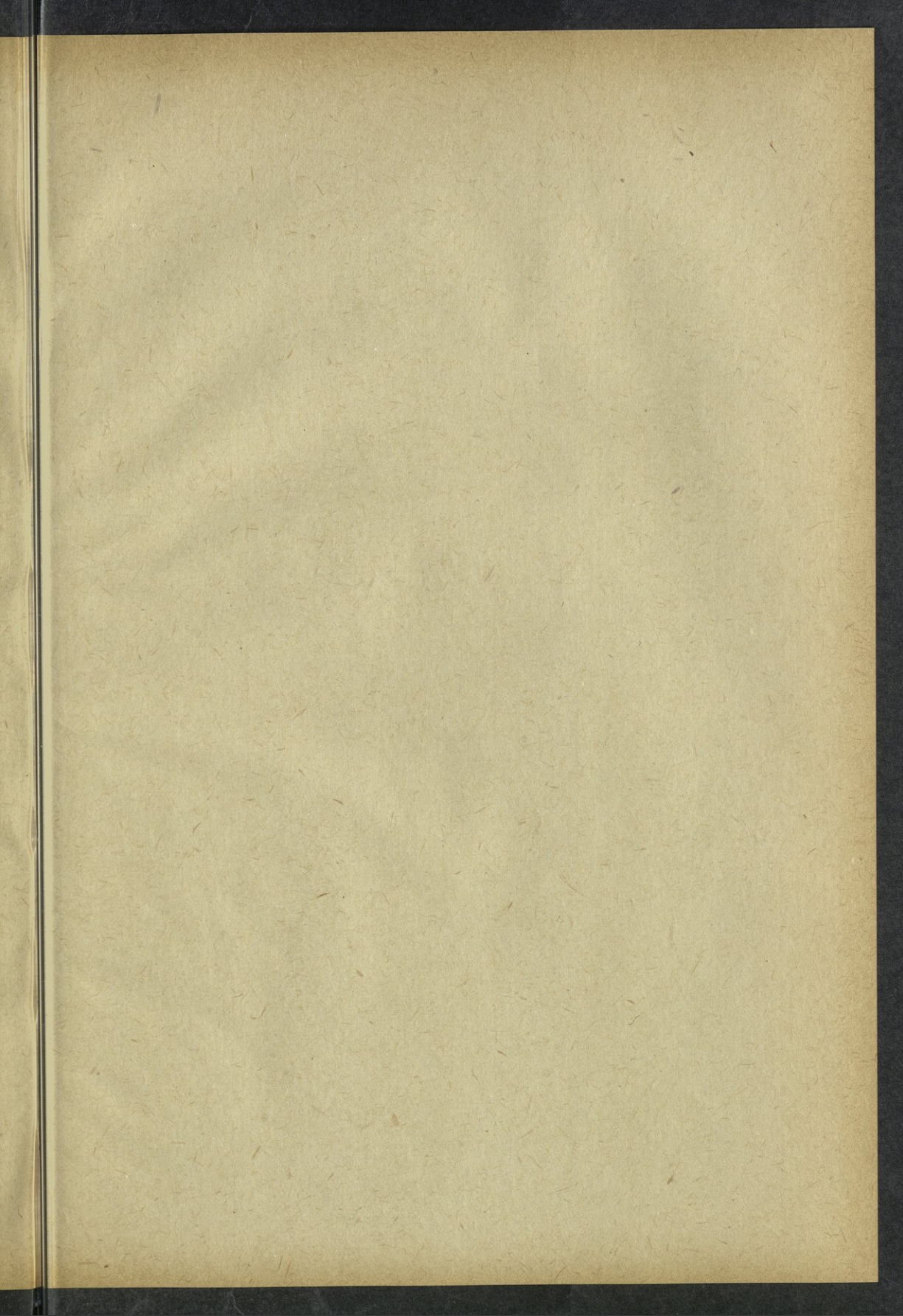
يخيل إلى أن الزحف الثالث للاسلام قد أصبح وشيكاً...

وليكن سمع وطاعة لولى الأمر الذى سيعلنه...

ألا أن الرجعية التى يمثلها فى العالم اليهود ومن شاكلهم من الأقوام الذين طلقوا
عقائدهم السماوية لن تقوم لهم قائمة بعد اليوم... إلا إذا تنكر المسلمون لعقيدتهم
وكتابهم..

ولا شك أن هذا لن يكون أبداً...

مقدمة في التواليف



أيها القارئ الكريم :

لعلك قد وجدت في مقدمتي ، العقيدة ، والسمع والطاعة ، بعض الرد على ما تسأل عنه مشروحا بإيجاز أرجو أن تتسع لي الفرصة لايفائه في الصفحات التالية ، وفي هذه المقدمة « الثوابث » . فلم أكن فيما أكتبه مقيداً برأى عالم أو فيلسوف سبقني .. إذ كل لدى أتقنه اليك لا يعبر إلا عن حالات نفسية عشت فيها ومارستها خيالا وحقيقة واقعية بنفسى ولنفسى .. وكنت كلما لاح لى أننى حلت عقدة بانت لى عقدة جديدة قديمة فى هذا النسيج الذهنى الذى أعيش فيه ...

بلوت الحياة ، وجدت الحياة نسيجا من الضيق والفرج

نظمت القوافى وجبت الفيافى أريد الحقيقة . هل من حرج؟

فأنا لا أكتب لك عن العقيدة لاؤدى بك الى اعتناق عقيدتى حتما . ولكننى آثرت أن أطلعك بما فى نفسى علنا نلتقى معا فى الطريق المبيع الى الحقيقة المطلقة مع اختلاف الظروف ، والبيئة ، والزمان ، والمكان الذى يجمعنا على ظهر البسيطة ، فننطق معا الى الحقيقة الأزلية الباقية . فسنة الذشوء والارتقاء ، والتطور ، تتناول النظام الاقتصادى ، والاجتماعى الذى نعيش فيه فى هذه الأيام ، وتوحى بأن طور الانتقال الطبيعى نحو السلام ، والاستقرار النفسى ، قد بدأ ..

فيقظة الوعى التى عمت البلاد الإسلامية ، والمسلمون فى مشارق الأرض ، ومغاربها ، قد تلوح ببدء الكفاح نحو التحرر من نير الاستعباد السياسى ، والاقتصادى ، والضغط الروحى ، ومع أن الناس يعانون حالة شديدة من التوتر العصبى فإنهم أصبحوا أكثر ميلا لفض منازعاتهم بالمفاوضات والمحادثات كأن تريد أن تكون الشورى نظامهم من جديد . وهذا يدعونا للتفاوض ...

إن تطور التفكير الانساني قد بدأ يميل الى التفاهم ، وهذا يدعونا الى السؤال :
كيف يمكن التفاهم ، والناس متباعدون في فهم عقائدهم ...؟

ان المذاهب السياسية السائدة اليوم في العالم تنكر المبادئ الدينية كأصول
للمذاهب السياسية .

وأنظمة الحكم منذ ابتداء الرومان يؤمنون بالعقيدة المسيحية . فلم يتعرض الرومان
للعقيدة التي يرغبها الناس الا اذا تعرضت للسلطان أى أن القياصرة لم يتدخلوا
في شئون الرعية ما دام الناس لم يعرضوا لشئون الحاكم ، ونظام الحكم ...
وحتى في الاسلام لم يتعرض الحاكم لحرية اعتقاد المحكوم مادام المحكوم لا يجهر بنقد
الحاكم .

وبعبارة أخرى ، فان الإسلام جرى على احترام حريات من خالفوه في العقيدة الدينية
على أساس تبادل الاحترام . وقد نشأ عن ذلك ما يسمى « بالحلق المكتسب » ...
فهاهم اليهود ، والأقباط ، ومسيحوا أوروبا ، وآسيا وأمريكا ، وحتى طبعوا استراليا
يلقون معاملة المثل في مصر ، العراق ، لبنان ، وسوريا ، وفلسطين ، وشرق
الاردن ، وفرنسا وإنجلترا ، وسويسرا مثلاً ... فهل يمكن أن يقال بأن الأخاء ،
والحرية ، والمساواة . هي مذهب فرنسا في الحكم في تونس ، والجزائر ، ومراكش ،
وفي الهند الصينية؟

هل يمكن أن يقال أن فرنسا تظلم مسلمي شمال افريقيا باسم الدين ؟
أو باسم اللادين ؟

لا يمكن أن يقال ذلك حتى ولو لم نكن نعلم أن فرنسا هي مهد الوجودية السارترية
التي تلوح للمؤمنين بسوط عذاب اذا لم يتخلوا عن فكرة السماء مخافة أن يضل

القطيع طريق الحقيقة الذاتية للإنسان ذاته . أو على الأقل مخافة ألا تذبل زهرات
الشباب في أركان مون مارتر ، والطاحونة الحمراء ...
لنعد مرة أخرى الى رأس الموضوع .

ما دمنا كلنا مؤمنين بأن الله واحد ففيم اذا الخلاف ؟
ما دام الخلاف ليس في وحدانية الخالق ، فهو اذاً في ما يمس مصالح البشر ...
وهذه بطبيعتها تميل الى المخالفة ، والتعدد دائماً .
فهى قشور وليست جوهرًا .

ومع أن الناس سواسية كأسنان المشط فان أكرمهم عند الله أتقاهم ...
فكيف يمكن أن يتقى فريق منهم الله فيكون أكرم عنده من بقية « أسنان المشط »
ومن أين تأتى التقوى ... ؟
اذا عرفنا ما هى التقوى فقد نستغنى عن معرفة من أين أتت . فلنبحثها ولنحلها
ولنعيدها ، الى أصلها ... فهل تقدر ؟
نستطيع بالعلم ، وبالقلم ، أن ندون هذه المبادئ ..

نحن كما قلنا أقوام اتفقوا على وحدانية الخالق ولكنهم اختلفوا فيما بينهم نتيجة
لافتقار اللغات التى تفاهم بها فيما بيننا إلى تعبير واحد في تعريف الله يتفق مع منطق مفهوم
الوحدانية . ففي المسيحية ثلاثي يعبر عنه المسيحيون بكلمة ثلاثي يؤدي إلى شيء واحد .
ومجرد الإشارة الى الوحدانية بإشارة وجودية حرفية يجعل المعنى اللفظي مستساغ لأن

واحد ينشئ اثنين ، والاثنين ينشئ واحداً . كما في تلاقح الذكر بالأنثى . فإنه ينشئ مولوداً جديداً .

و بالمعنى الروحي المطلق . فالواحد المنشئ للأثنين يتمثل في انكار الذات دون أن يخشى الخطأ . إذ المعلوم عند علماء الفسيولوجيا أن نصف الإنسان أو شقيقه لن يتساويا . فأحدهما يسكنه القلب ، والآخر يسكنه الكبد . ومع ذلك تتحكم الإرادة فتفصل بينهما وتكفل الحياة للشقين ، كشقيقين متساويين في الجوهر . وتنفرد الإرادة بالسمو والروحانية فتبدو كأنها استغنت عن الشقين استغناءً كلياً لا يتعارض مع وحدة الذاتية فتكون قد قبلت المساواة بينهما . فلا أب ، ولا ابن ، بل روح قدس .

فهذا الواحد المنشئ للأثنين المقسم بينهما ذاته كفل لذاتيته قدرة على القدرة المطلقة .

واتفقوا فيما بينهم على شمول اللفظ للأقانيم الثلاث .

فأين يكون بعد العقيد الثلاثية الآن في الوحدانية عن عقيدة الاسلام التي تقرر التوحيد في الواحد المجرد عن التعداد اللهم الا في أذهان الذين اختلطت عليهم الحقائق بالمجازات . . . أولئك الذين نسوا أن الانسان مضطر الى استخدام المجاز بقدر ما هو مضطر الى استخدام الحقيقة . . . وإنما هو القدرة على الأمانة في حال من الأحوال والعبي عنها في الأحوال الأخرى .

والناس اذ يصلون الى مرحلة شك بعد مرحلة يقين ، فهم إنما يمتحنون عقائدهم فيلجأون الى التعليل أو الى التبرير أو الى التفسير وهذه هي بدايات ضعف الايمان بالعقيدة الموحدة الواحدة المقدررة .

لقد توصل الناس بالعلم إلى بلورة المادة فأتتجنا البلاستيك الشفاف . وهذا التطور ،

والارتقاء يدل على أن الإنسان هو السيد المتصرف في جسده ، وروحه معاً . لأنه مؤمن بالعقل والدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له ، وهذه الرياضة الروحية ، والجسدية تتجانس ، وتتلبس فتصبح إنساناً يؤمن بالعقيدة . والعقيدة الإسلامية .
ثالثة العقائد المكتوبة ، والمنوحة ، والموهوبة من الله لثلاثة أنبياء في ثلاثة عصور متباعدة . وهي مكملة لدين الله الذي ارتضاه للعالمين .. الاسلام . لأنها العقل الحر المتكامل للإنسانية .

إذاً فالدين الإسلامي مكمل بالعقيدة المحمدية نسبة لنبي الرسالة الإسلامي ، وهو الفيصل الذي هيأ المسلمين ليكونوا شهداء على الناس ، والشهادة لا تقبل الا ممن تتوافر فيه التقوى . إذاً فلا بد أن يكون بين الناس من هم أكرم وأتقى .
فمن هم الأتقياء ؟

أهم الذين يشهدون ألا اله الا الله وأن محمداً رسول الله مهما كانت تصرفاتهم ؟
أم هم الورعون الذين يخشون أن يملوا أطراف أقلامهم من مداد غيرهم الا باستئذان منه ؟

لا شك أن هذه التقوى أو الورع انما هو الورع الأعجمي الذي وصفه عمر رضي الله عنه .. وان كان هذا هو الشائع الدائع بين الناس في فهم الاتقياء ..
ألا أن الاتقياء هم الذين يذكرون اسم الله في كل عمل وفي كل قول وفي كل تيقين .
وهذه هي درجة التقوى المشودة لعقيدة الاسلام . عقيدة الأمة الوسط التي جعلها الله شهداء على الناس .

فعلى ضوء فهم ضرورة استخدام الحقيقة والمجاز كما بينا آنفاً نستطيع أن نسأل مرة ثم مرات :

ما هو وجه الاستغراب أو الخلاف الذي يقوم بين الثالوثية المسيحية والتوحيدية

الاسلامية. بينما العقيدة الاسلامية يقوم فهمها على ثلاثة ادراكات : القرآن ، والتفسير ، والسنة . وهذه هي الثلاث العمدان لقيام مفهوم عقيدة الاسلام وادراك مراعى الحقيقة فى فهم القرآن

فهذه الأضلاع الثلاثة فى فهم العقيدة الاسلامية قد تحوم فى ذهن انسان عيى فى بعض الاحايين الى ادراك أن الاسلام يقوم فى عقيدته على التثليث أيضا فهل يسمى ذلك المسلم ثالوثيا . . . وهل يبعده هذا الفهم عن الاسلام كعقيدة موحدة . . ؟ وهل تتساوى أضلاع هذا المثلث أم أن القاعدة أن هذا الثالوث انما هو تعبير تصورى امكانى لذلك المسلم الذى أعياه التبيين الابهذه الوسيلة التصورية كما تخيلها المسيحيون فى يوم ما قبل مجيء الرسول . وقبل أن يصحح القرآن ذلك المفهوم انهاء للتخبط والخلط .

ان الناس كأنهم كانوا يريدون أن يحتموا على كل انسان أن يكون مبينا قادرا على التبيين — حتى قبل أن ينزل عليهم كتاب التبيين — القرآن . لأنهم حكموا على من قال بالتثليث . . بأنه مؤمن بالتثليث .

أو كأنهم أرادوا أن يحتموا فهم مفهوم اللغة العربية — لغة القرآن — قبل أن ينزل . حتى على غير من لم يفهم اللغة العربية أصلا . والا لكان من حق الناس على الناس ألا يختلفوا وأن لا يباعد بعضهم عن بعض من أجل تعبير مجازى أريد به تقريب المفهوم البدهى لقوم لم يكن فى مقدورهم أن يفهموا الله الابهذا التعبير . فكلمة الله التى نزلت فى الفرقان (انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) انما تدل على الرغبة فى التوضيح .

لأن الكتب السماوية التى اشتملت على تعاليم الرسل والانبياء الذين نادوا بالتوحيد

قبل القرآن لم تكن منزلة بالعربية وإنما نقلت إليها عن طريق الترجمة والتعريب .
 فهذا التوضيح السماوى العربى إنما كان متساوياً ومتفقاً مع التطور الذهنى والزمنى .
 إذ أنزل القرآن على نبي عربى لقوم عرب ولخاطبة عقول عربية تطورت فأصبحت
 فى حاجة إلى مفهوم موحد لإسم الله .

وظلت الكتب والمفاهيم التى سبقت تنزيل القرآن موضع الخلاف الناشئ من
 خلط المجاز بالحقيقة فى أذهان الناس فلم يهتم الأزهر مثلاً - وهو جامعة إسلامية يدرس
 فيها الدين واللغة العربية - بإعادة النظر فى ترجمات الكتب السماوية التى أنزلت من
 قبل تنزيل القرآن .. ولعل الأزهر احترام أيضاً ما أسميته قبلاً بـ « الحق المكتسب »
 فلم يشأ أن يتعرض لغيره مخافة أن يتعرض لغيره !..

ومع أن الأزهر أنشئ منذ ألف سنة ، ويزيد أى قبل أن تدخل النصرانية الى
 روسيا فان الأزهر لم يتعرض لتصحيح الخطأ المادى الذى وقع فيه مبعوثى الاسلام
 الى فلاديمير أول أمير رغب مختاراً أو مضطراً فى اعتناق عقيدة سماوية تخلصه هو
 وقومه من الشك فى قدرة الاصنام التى كان هو وقومه يتخذونها آلهة من دون
 الله . ولو كان الأزهر قد تعرض لهذا النصح لكان قد صحح للروس اعتقادهم
 بوحدانية الله المطلقة ولما كنا سمعنا عن الماركسية التى ما قامت الا لتدحض الشك
 الذى ساورها فى هذا الانسان الذى جاء ليبشر بالسلام ، والذى قال « أن الإنسان
 يجب أن يولد بالروح ثانية .. »

هذا الانسان هو المسيح عيسى بن مريم « قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله
 أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

ولعل الأزهر قد شايع القيصر الرومانى الذى نزل عن لقب الإله ، ومنح المؤمنين بالعتيدة المسيحية حق عبادة الإله الذى هم يريدون ، ولم يتعرض لهم فيما يعتقدون على ألا يتعرضوا له فيما يعتقد .

وقد يكون من الصواب أن نسأل بل أن نتساءل كيف يتخلى قيصر عن نعتة بصفة الإله ، ولا يبحث عن إله يؤمن به هو إلا أن يكفر بالآلهة جميعاً . ويؤمن بنفسه فحسب . . .

وقد تعرض بصدد هذا البحث الى تساؤل يعود بنا فى الزمن الى ما قبل قيصر هذا بأربعة عشر قرناً أى الى عهد موسى بفرعون حين آمن فرعون بعجائب موسى ، ولم يؤمن برب موسى الذى أرسله .

ان حرفية وصايا موسى العشر التى أنزلها الله عليه لم تنقضها المسيحية بل شرحتها ، وأوضحت سمو معانيها ولم تأت المسيحية لتتنقض شريعة موسى بل لتكملها . ومن عهد آدم إلى المسيح عليه السلام جاءت رسالات جاءوا بها أنبياء ووضعت تعاليم بشر بها كثير من الصالحين الذين آمنوا بوحداية خالق الوجود ، كما آمنوا بأن اللطيف هو القوى ، وأن المتعبد هو الصحيح الجسم . أما الضعيف فهو بطبيعة الحال لطيف ، وأما المريض فهو بطبيعة الحال متعبد ، وأما الله فعزاء .

لقد جاءت الأديان للضعاف أخلاقياً . جاء بها الأنبياء واستوحوا تعاليمها وطرق اتباعها من الصالحين ، ومن الأنبياء أيضاً الذين سبقوهم فى الدرجة الأولى . وقد ذكر الانجيل على لسان السيد المسيح عليه السلام أنه قال « لا تدعونى صالحاً فليس صالحاً إلا الله » .

وقد يخذع الإنسان نفسه طول الحياة التي يحياها هو ، ولكنه يسلم في النهاية للحقيقة
المجردة المطلقة . . الله . .

وإذا كنت أقول بأن الأديان جاءت للطبقة الضعيفة أخلاقياً أى التي يشترك فيها
المرضى والضعاف الذين يشكون في قبول يقينية الوجودية ، والذين طبعوا على حب
الحياة وحب البقاء ، بعد أن جاءتهم وصية موسى الأولى « أنا هو الرب إلهك لا يكن
لك إله غيرى » ووصيته الثانية « أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على
الأرض » . فان القرآن يذكر آية واحدة تشمل هذا الناموس « وقضى ربك
ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » وقد شرح القرآن الكريم معنى الأمر
والقضاء الإلهي فأنشأ للإنسان حقاً وفرض عليه واجباً ، وقد كان يمكن أن يقال
أن القرآن هذب معنى التثليث الرمزي للواحد المنشئ للاثنتين وللاثنتين المنشئين للواحد .
ولكن القرآن لم ينزل ليفسر المادة على أنها روح أو يفسر الروح على أنه مادة .
لأن الروح والمادة شيئان مختلفان يأتلغان في الإنسان عن طريق الفكر وهما
نتيجة إرادة عليا اختص بها الخالق سبحانه وتعالى .

فكان من الممكن بسهولة أن يعتبر الاسلام مكملاً للمسيحية كما كانت المسيحية
مكملة لليهودية ، وفي هذه المنطقة العربية، الروحية، المادية، ما كان أخرى الناس أن
يتفقوا بدل أن يختلفوا وأن يتقاربوا بدل أن يتباعدوا ، وصدق الشاعر أبو الوفا حين
يتساءل فيقول :

عيسى أخوك محمد وكلاهما بان وشائد
ما للنصارى في كنائس والحنائف في مساجد

ما الرواشد ما لهم لا يصهرون مع الرواشد؟
 أقول آدم لم يكن أم كان آدم غير واحد؟
 لم لا يكون الحب وهو الأصـل رائد كل رائد؟

وإذا فالقرآن يكمل لأصحاب العقائد عقائدهم منزهاً الله عز وجل عن أن يكون شيئاً يمكن أن يتصوره الانسان على صورة ما أو أن يعرف سره لأن الله قوة غير منظورة ويجب أن يظل في نظرنا كذلك لأن الانسان بطبيعته جيلة تحتوى ذرات وعناصر تمثل جميع الكونيات وقواها وهو يفتر دائماً الى القوة الروحانية التي يستمدّها من الكائن الحي الأزلى الذى لا يموت .

وقد نعجب لموسى حين ندرس شخصيته كنبى لم يحاول أن يهدى فرعون ولكنه كف فقط بإخراج بنى اسرائيل من مصر بعد أربعة عشر قرناً أى من عهد يعقوب إلى موسى تقريباً.

فإذا ما تمت معجزة إقناع فرعون باخراج بنى اسرائيل من أرض مصر عاد هؤلاء الى ملاقاته أبناء عمومتهم (بن عمينو ، تعبى يهودى) فى أرض فلسطين وأطلق عليهم منذ ذلك التاريخ اسم العبرانيين نسبة إلى عبورهم البحر . فعاشوا بين أبناء أسباط يعقوب وكان للنساء وبيئة كل منهم طبيعة مختلفة فى الجوهر لأن ظاهرة الانسان لا يمكن أن تكون مختلفة وإن تعددت صورته . وقد أوصى الاسلام الناس أن يأخذوا بالظاهر تؤكداً لحرية المعتقد .

ولكى لا تكون هذه الحرية مادية المظهر بل ظاهرية أى مطلقة من قيود المادة،

وإن كانت طاقة الإنسان على احتمالها نسبية فإن نظام الوجود يحتم التطور في ارتقاء الروح بحيث يمدد لا مكانية حدوث تطور كامل للذات الانسانية ليصبح الانسان قادراً على أن يخلق بالروح ثانية.. ولا يكون خلقه عجباً يخرج من حيز الامكانية إلى حيز الإعجاز — فالله هو خالق الكون والوجود بأسره ولا شيء عنده عجباً .
فإرادة مطلقة ..

فاذا كانت الكنيسة قد جاوزت الحد في تعريف الله وتقريب فهمه للمسيحيين على صورة مادية بقولها (آب) للمسيح الذي خلق بالروح كأمر من أوامر الله وأطلقت على المسيح اسم الابن ووجدت أنه من أجل أن تكون الصلة بين الآب والابن في حياة واحدة أزلية أنها في حاجة إلى أقنوم يربط بين الآب والابن بالحياة عولت على الروح القدس كأقنوم ثالث يعبر عن حيوية مطلقة تربط بين الآب والابن . واتخذت من هذا الثلاث تفسيراً للضعاف والمرضى ، وبعبارة أخرى للطبقة الثالثة من الناس الذين هم في حاجة إلى دين يلهي عقل مدرك .

وهذه الطبقة الثالثة الممثلة للغالبية العظمى من الناس حين يضيق بها الأمر تهرع إلى رجال الدين لتلتقي منهم الارشاد لتحصل على السلام والاستقرار ..!
أما الاسلام قد قرب بين المؤمنين جميعاً بقوله « إنما المؤمنون اخوة » ، والاخوة هنا تعبير مجازي في ظاهر القول لا شك أنه يراد به تقريب الحقيقة العظمى في أذهان أصحاب المداوك التي لا تستطيع أن تخرج من حيز المادة فتزق إلى المفهوم السكل . الله . الإلهذه الواسطة في التعبير . ثم لتقريب الحقيقة المثلثي وهي أن الناس كلهم من اصل واحد فالكل لآدم وآدم من تراب ..

فاذا ما عدنا مرة أخرى لمناقشة أسباب نشأة الماركسية ، والشيوعية ، والوجودية

الساثرية لوجدنا أن رجال الكنيسة الذين احتموا بالقياصرة ليكفلوا البقاء لأنفسهم هم سبب نشوء الماركسية . وهم سبب نشوء الوجودية الساثرية . وهم سبب الاضطراب الذى يبلبل أفكار الانسانية . وهم سبب انكار الناس لوجود الله . مع أنهم يقولون عن الكنيسة أنها بيت الله . وأنهم خدم بيت الله . ثم هم قد اخذوا السلطة من المسيح الذى منحه الله سلطة على الكنيسة فصيرته هذه السلطة ربا للكنيسة لا رباً للخلقة ..

وليس مرجع الانكار هنا الله ذاته وحتى ليس مرجعه تعاليم الله ولكن المرجع هو ذلك التناقض العجيب والحلل المعيب بين ما تأمر به الدولة كراعية لمصالح الناس فى الأرض وما يأمر به الدين كراع لمصالح الروح والجسد معاً فى الدنيا والآخرة ، أى للربط بين الارض والسماء وبين المادة والروح . فللدولة سلطان يحمى الكنيسة وليس للكنيسة سلطان يحمى الشعب من أحكام الدولة ، ومن الانظمة الوضعية المؤسسة على الواقع الطبيعى والتي تخلو خلواً كاملاً من ذكر الله .. وقد لا تذكره الاعلى سبيل المجازة . وهذا لعمري سبب نشوء الماركسية التى عبرت عن الشعب بالقطيع والتى رسمت للكفاح فى سبيل العيش طريقاً مادياً بحتاً . ولقد تحدثت فى مقدمتى السابقة السمع والطاعة ، عن الرجعية المثلة فى اليهودية العالمية التى أنكرت تعاليم المسيح ، وها أنا ذا أعود فأكرر الحديث عنها بتعريف ولى الامر فى الاسلام .

إننا باطلاعنا على تاريخ الفجر الأول للاسلام أى فى إبان حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . نجد أن الرسول قد جاء هادياً لطبقة الحكم مؤكدا لهم طاعته لله . فلم تكن رسالته مجرد كلام . ولم يكن القرآن مجرد ذكر بل كان تعليماً لطبقة الحكم أن يحكموا بالعدل بين الناس . وقد فصل هذا التعليم وهذا العدل تفصيلاً واسعاً فتقرر

بأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وهذا هو مبدأ المساواة بين الناس كخلقة.
وكانت رسالة الرسول إلى الحكام والولاة واضحة ولا تخلو من ذكر الله مطلقاً. فهو لم
يفعل الحسنات حباً بالجنة أو خوفاً من النار ولكنه كان يشعر كأنسان بالآلام إنسان
آخر فيعمل على تخفيفها لأنه كان يصدق لأوامر الله دون أن يناقشها - وفي هذا لذة
ومكافأة - فلموت في سبيل الله كان ولا يزال أعز أمنية عند المسلمين. فالمادة مهما ازدادت
صلابة والأخلاق مهما ازدادت انحلالاً، والتماسك بين الأفراد والأسرة مهما وهن في
دنياهي بطبيعتها شركة مساهمة لكل فرد فيها نصيب ويجب أن تساس فيها الأمور
بالعقل، ويجب أن يكون للعقل السهم الأكبر ليستطيع أن يتحكم في مقدرات ذاته
وهو بعد ذلك يؤمن بأن رحمة الله وسعت كل شيء ...

والاسلام وإن كان قدسوى بين الناس فانه لا يستوى عنده أو فيه الجاهل والمتعلم،
أو الأعمى والبصير، أو الطيب والخبث فالحلال فيه بين، والحرام فيه بين
ولا يعترف الاسلام بالمتأرجحين بين الشك واليقين، وفي هذا يقول (من شاء
فليؤمن ومن شاء فليكفر) ويقول (لا إكراه في الدين) .

وتعاليم الاسلام في التوحيد تنفي الوسطة بين المخلوق والخالق ، وهو الذي يغفر
الذنوب جميعاً ، ولا يغفر أن يشرك به . وكل خلاف وقع فيما قبل تنزيل القرآن تجاوز
عنه الله حتى فيما يختص بما قيل عن المسيح حين قال الله له في رواية القرآن « أنت
قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانه ما يكون لى أن أقول
ما ليس لى بحق إن كنت قتله فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك
أنت علام الغيوب » .

ومع ذلك فقد عاش المسيحيون حتى اليوم على التثليث ، وبقيت المسيحية التي رسمتها الكنيسة تتمتع بحق مكتسب . حتى نفته العقيدة الإسلامية من حيث هو صورة من صور الشرك بالله ..

وعاشت اليهودية منكراً للمسيحية والاسلام . واستتبع هذا الإنكار قيام الرجعية بين وقت آخر بمحاولة إنكار تطور الدين والرسالة السماوية . التي انتهت أسطورة شعب الله المختار وجعلت من الأمة العربية الإسلامية أمة وسطا . فقد اكسب اهمال رجال الدين الاسلامي اليهود حقاً مكتسباً ايضاً . وهكذا تلقى المسؤولية كلها على رجال الدين المسلمين الذين اعتقدوا بالأنبياء وبالرسل ، والكتب كلها ، ومع ذلك فهم لا يمارسون حقوق هذا الاعتقاد وواجباته فيعملون على تصحيح هذه المعتقدات والرسالات للناس ليكون الدين كله لله .

قلت فيما تقدم من الكلام أن النبي موسى عليه السلام أرسل في عصر مادي هو عصر السحرة الذين كانوا يصنعون المعجزات السحرية فلم تكن له رسالة لفرعون الذي طغى تلزمه . أي موسى . بالبقاء في مصر حتى يهدى فرعون . فقد يبدو لنا أن الله سبحانه وتعالى قد قصر رسالة موسى في مصر على اخراج بني اسرائيل من أرضها . وكان لاخراج بني اسرائيل منها حكمة الهية فقد تدخلوا في عبادات الفراعنة لا ليوجهوا الناس الى الدين الحق والوحدانية المطلقة : بل ليسفوها فكرة الخلود بعد الموت التي كان يؤمن بها عبدة الاصنام من الفراعنة وبعبارة أخرى عمل اليهود — يهود مصر — الى تحويل الناس عن عبادة الله الغير المنظور الى عبادة الله المنظور

والمعروف أن المال هو اله المادة . وقد قال السيد المسيح فيما بعد لليهود أنكم لا تستطيعون أن تعبدوا ربين الله والمال . وقال القرآن بعد ذلك . « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » فعبادة المادة وعبادة المال لا تتفق مع عبادة الله لأن الله روح مهيم مسيطر موجه متعال قادر على تصريف أموره ، والمادة حجر تصقله يد الإنسان ويتصرف فيها هو أو تصرف فيه هي تبعاً لاتجاهات التصرف والتحويل ووفق حاجته . وإذا يمكن القول أن الانسان اذا اندمج في المادة اندماجاً كلياً بحثاً فسيئته به الامر حتما الى تحلل من المادة والروح لدرجة أن يصير الى عدم .

ولم يقدر اليهود أن يستبدلوا المادة بالروح رغم كل ما جاءهم بعد من رسالات روحية اذ كتب عليهم أن يعيشوا كذلك وأن يظلوا مقياساً لتقهر المادة أمام تقدم الروح وهم بلا شك في الطريق الى الاقتراض . وهذا هو مركب النقص اليهودي الرجعي ... كلما آذنت شمسهم بالمغيب استمسكوا بأطراف النهار . لعل هذا الليل لا يحجى ، ولعل هذه الظلمة لا تكون سبباً في سبي أولادهم أو تفتيلهم .

وقد يقوم سؤال لمعرض . اذا كان الامر كذلك فلم لا نعاملهم بالشفقة والعطف ؟ ونجيب على هذا السائل فنقول ليس على الانسان أن يغير أو ويدل من مشيئة الله ... وليس علينا أن نقرر ما ليس في حساب الله . وليس علينا أن نعطف على الناس عطفاً يزيد عن عطف الله . وليس علينا كل نساين أن نكون أكثر انسانية مما قدر لنا فنشئ للشيطان مكاناً يسكنه باسم الانسانية . فليصنع الشيطان لنفسه مسكناً ولين له بيتاً ولنهدمه اذا كنا نخشى على انسانيتنا أن يغدر بها أو يغدرها الشيطان .

وقد عاش اليهود يعللون النفس بوطن قوئى أخطأوا اختيار موقعه . فليست فلسطين وطن اليهود، ولسكنها مهد الانبياء . وليست فلسطين بيت الشيطان، فبيت الشيطان جهنم ومملكته فيها وليس على أن أدلهم على جهنم ، ولكن على أن أوعز اليهم بالخلاص منها فقد جاءت الديانات لتدلهم وتهديهم الى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم فخلصهم من ربة أنفسهم ومن تحكم المادة فى دنيا كتب على كل من فيها الفناء المادى ، ولمن شاء أن يخلد بالروح أن يعمل عملا صالحا يبقى .. وكانت وصايا موسى صماء متجاوبة مع أضواء تفكير بنى اسرائيل وأقصى ما فيها من أمانى أن تطول أيامهم على الارض !..

فإذا انتقلنا الى العصر الذى جاء فيه المسيح عليه السلام وجدنا أن المادة كانت تحتضر وفى أقصى أطوار الانحلال . فرجال الناموس الذين حملوا تابوت العهد والوصايا بجرفيتها أصبحوا آليين يحكمون بلا ارادة انسانية . فقوى الخير والشر يجب أن تتوازن اذا ما اقترب الخلل من عامود الميزان وكما زاد عدد الطيبين كلما قل عدد الاشرار ، وكما سمت النفوس الى روحانية ألهية كلما ضمر حجم الشر وثقلت موازينه بالحجم . فأصبح الناكرون الجاحدون الكافرون بنعمة الله قلة وأصبح الحائرون الهائمون الباحثون عن الحقيقة المطلقة كثرة عظمت .

وكما أن الله سبحانه وتعالى وضع سنة الشوء والارتقاء يصرفها هو بقدره فائقة ، وفى مواقيت معلومة فإنه يمنح الهدى للعارفين به الراغبين فى الوصول اليه فيوصيهم بالصبر ويتقبل رجاءهم فى الخلاص ويحدد هو سبحانه وتعالى ساعة الخلاص « يسألونك عن الساعة قل علمها عندي . وما أدريك لعل الساعة تكون قريباً »

(والعصر أن الانسان لفي خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ،
وتواصوا بالصبر)

وكانت رسالة المسيح مركزة على طريقة مولده فقد ولد بالروح كأمر من أوامر الله .
ولد معلماً مميزاً مدركاً لبدايته ونهايته فقد نادى أمه وهو مازال تحتها قال « لا تخافى
ولا تخزنى قد جعل ربك تحتك سرياً » ونادى بنفسه رسولا ، ومبشراً ونذيراً
فقال « سلام على يوم ولدت ويوم أموت ، ويوم أبعث حياً » . فكل ما قد حدث
فى حياته لم يكن مستحدثاً بل كان حادثاً من قبل أن يولد وما حياته الا دليل
للمتشككين يستمدون منه يقينية الارادة الالهية فى أن كل ما يريد الله أن يكون
قد كان وما النبوات التى سبقت خلق السيد المسيح الا خطوات مهدت الاذهان الى
ايمان مطلق بقدرة الله .

ومن هنا ندرك أننا نعيش فى الأزمنة الثلاث . الماضى والحاضر والمستقبل . كما نعيش فى
العقائد الثلاث . وما دمنا محاولين الاندماج فى الفهم الروحى لهذه العقائد فليس غريب
منا ولا أجنبي عنا إلا هؤلاء المعتنقين الجامدين الماديين الذين يحاولون أن يوقعوا
العدواة والبغضاء بين أبناء الانسانية بما يتمسكون به من ألفاظ واعتبارات لا تقوم
الا على أساس مركب النقص الذى يعيشون فيه كأقليات متفرقة مبعثرة تبحث عن
المادة حيثما كانت . فهل نكيف حياتنا الحاضرة متعطين بعبير الماضى عاملين للمستقبل
وهو هنا الحياة الأخرى ، الجنة كما يعبر عنها الاسلام . أو الملكوت السموى كما
تعبّر عنه المسيحية ؟ .

ورسالة السيد المسيح كانت مياة للطبقة الثالثة . للفقراء والضعفاء والأطفال ، الذين

استغلهم الناموس وحالوا بينهم ، وبين التطور والارتقاء .

ولم يكن السيد المسيح في ذاتية الانسانية يعمل من أجل بقاء مادي فقد كانت رسالته تهديداً للناس بالمادية ، وما كان يستطيع أن يفعل غير ذلك لأنه في حد ذاته أمر من أوامر الله وجوهر من جواهر الروح تمثلت في بشر . فلا حيرة للناس ولا حيلة له هو في نفسه إلا أن يفعل ما أمر به تلقائياً دون أن يكون له حق المناقشة في مصيره .

فإذا قيل بعد ذلك وهذا القول ما قاله اليهود — بأنه صلب . فإننا نعلم عن اليهود بأنهم لم يعترفوا بمجيء السيد المسيح كرسول . فهم حين أرادوا محاكمته لم يقدرُوا على اتهمه بأكثر من أنهم قالوا أنه أراد أن يكون ملكاً عليهم فلما لم يستطيعوا إثبات ذلك أمام يلاطس الوالي الروماني قالوا في ثورة عمية أنه قال أنه ابن الله . وقد سأله يلاطس عن ذلك فأجابه السيد المسيح : أنا لم أقل هذا ؟ بل أنت قلت . فأى دليل قام على تكذيب قوله ، وأى دليل قام على صلب هذا الإنسان بالذات ؟

إن رواية الأناجيل عن الصلب لا تؤكد واقعة الصلب بالنسبة لهذا الإنسان بالذات ولكنهم أرادوا أن تكون هناك نهاية لهذه الاسطورة فتخلوا أن المسيح قد صلب وقالوا أن النبوءات التي سبقت مجيئه تقرر وجوب هذه النهاية اذ قيل أنه قيل في الاساطير السابقة « أن نسل المرأة يسحق رأس الخطيئة ، ولكنها تلدغ عقبه »

وليس هذا المفهوم من هذه العبارة يؤدي الى تطبيقها على السيد المسيح بالذات لأن السيد المسيح ليس نسل امرأة فأمة بتول لم يمسسها بشر من قبل أن تحمل به . والمسيح ذاته بتول لأنه ليس من الخطيئة بل من الله . وهو رمز قائم بذاته لتجسد الروح ، ومثل لآدم من حيث ارادة الخالق . وهو على هذا الأساس أصل ثابت

من أصول تطور النشوء ، والارتقاء بالخلق ، ونقطة تحول لتبلور المادة . وحكم من أحكام الله في تعطيل أداة الخطيئة ... وقد أدرك علماء اليهود وفلاسفتهم هذه الحقيقة فأرادوا بقولهم أن المسيح قد صلب أن يعطلوا مشيئة الله ، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يكون شيئاً كان وإذا أبى أن يكون هذا الشيء فلن يكون هذا الشيء ، وهو متم نوره ولو كره الكافرون .

ولو تناولنا موضوع الصلب مادياً لما أمكننا تصديقه أيضاً لأن كلمة الله لا تمس فضلاً عن روحه . والكلام كله أياً كان قائله لا يمس . والمسيح كلمة الله وروح منه . والكلام يسمع ولا يمس .. فإذا كانت الكلمة كلمة الله فأولى بالبشر أن يستمعوا إليه وقد جروا على الاستماع لمن تزعمهم في الحياة الدنيا وكانوا بشراً مثلهم .

وإذا كان تلامذة السيد المسيح قد رأوه متجلياً بعد اذ علموا بأنه صلب ومات ، وقبر وقام ... بعد ثلاثة أيام من وقت الصلب ، وقيل بأن هذا تتميم لما جاء في الكتب من قبل .. فإني أقول أيضاً وقد اعتمد الشك عندي في صحة رواية الكتب التي أشرف على إعدادها من قبل معلمو اليهود وفلاسفتهم ، بأن المسيح لم يصلب قط بل توفاه الله كمادة في الأرض ورفعاه إليه روحانياً كما جاء به أول الامر .

وكثيراً ما يختلف المؤرخون في تصور نهاية لثورة مادية فكيف هم لا يخطئون في تصور نهاية لثورة روحية لا يؤمنون بها .

وقد جاء القرآن بوحى من الله وبلغه عريبه على رسول أمين مصداقاً لما بين أيدي الناس فيما لم يمس التحوير ، والاجتهاد ، ومصححاً لما تناوله المغرضون من ، وقائع روحية تصوروها تصوراً مادياً . (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس

لا يعلمون) .

وإذا لم يؤمن الاسلام بعقيدة الصلب فانما هو يصحح للذين اعتقدوا بالصلب عقيدتهم ويجلهم عن هذا الاسفاف الخاطيء فى المعتقد ، ليكون وعد الله حقا اذ قال سبحانه المسيح (انى متوفيك ورافعك الى) وقد صدق وعده .

فلا خلاف اذاً بين العقيدتين المسيحية والمحمدية فى الظاهرات ، والعجائب التى اتصف بها عهد المسيح عليه السلام وكان من بينها إحياء الموتى بإذن الله لى يؤمن الناس بالمسيح كرسول . وبأن الله هو مرسله ..

أما التثليث فقد راعى فيه رجال الكنيسة قوة الاجتهاد فى تبسيط قبول فكرة الله دفعة واحدة لى يكفلوا أمرين: الاول ربط البداية بالنهاية ، ربطاً ناسوتياً ولاهوتياً فهم فى قولهم باسم الآب يقدررون بأن الله سبحانه وتعالى والد هذا الكون بمعنى خالقه وعائله والمسؤل أولاً وأخيراً عن نظام تكوينه وإعاشته ، باعتبار أنه كانت هناك أرباباً من دون الله كان الناس يعبدونها لاعتقادهم فيها بأنها آلهتهم . ولم يرسل الله النبيين والرسل ، إلا ليهدى الناس اليه حيث يقول تعالى فى القرآن « إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » . (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) « وأعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » . هذه الآيات البينات تدلل صراحة على أن الناس كانوا فى شك من إله واحد فرد صمد .

فإذا انتقلنا الى الشق الثانى ، وهو الابن وجدنا المسيحيين يؤمنون بإله واحد قربته لهم الكنيسة لتبرز قيام رئيسها بأعباء الخلافة الرسولية من بعد المسيح فتبشر بإله واحد رآته على هذا الوضع لتمنح رجال الكنيسة سلطاناً على الناس كما منحه السيد

المسيح - الابن - فتحفظ الصلة بين الآب ، والابن ، بالروح القدس .
وقد تغالى رجال الكنيسة في شرح فكرة الله على هذه الصورة لأن الناسوت ،
واللاهوت لا يجتمعان الا في المسيح - الابن - وهما على هذا الأساس لا يمثلان
الشق الأول من الثالوث كجوهر مفرد ولا يمثلان الشق الثالث من الثالوث وهو
الروح القدس كجوهر مطلق ، وعلى هذا الأساس يكون هذا التقريب لفكرة الله
محاولة مجازية فاشله لأن مثل عيسى في الخلق كمثل آدم من حيث هو . أمساويه
من حيث الارادة الإلهية كما يساويه تماماً خلق حواء من ضلع آدم . والسر الألهي
الذي ظل مجهولاً للناس سيظل كذلك لأنه سر الخالق ، وسر الخلق ، الذي تم على
ثلاث مراحل ، انبثت فيها روح الله مباشرة دون لجوء الى أطوار هي من خصائص
الولادات الجسدية .

وهذا التثليث المكون لارادة واحدة هو نتيجة لمشية الخالق في أن يكون أصل
الانسان واحداً ، ومن تراب . وهذا على ما اعتقد هو سند رجال الكنيسة الذين
يقول عنهم السيد المسيح في حديث له مع الشعب . «على كرسي موسى جلس الكتبة
والفريسيون . فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه ، وافعلوه ، ولكن حسب
أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ، ولا يفعلون . فانهم يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة
الحمل ، ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم . وكل
أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس . فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم
ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الاولى في الجامع ، والتحيات في الاسواق
وأن يدعوهم الناس سيدي ... سيدي . وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لأن معلمكم
واحد المسيح ، وأنتم جميعاً أخوة ، ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد

الذى فى السموات . ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح . وأكبركم يكون خادماً لكم . فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع .

لكن ويل لكم أيها الكتبة ، والفريسيون المراءون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ، ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الارامل . ولعلة تطيلون صلواتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا ديناراً واحداً ، ومتى حصل تصنعونه أثناً لجنهم أكثر منكم مضاعفاً . ويل لكم أيها القادة العميان الجهال والعميان بالهيكل فليس بشئ... ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم . أيها الجهال والعميان أيها أعظم الذهب أم الهيكل الذى يقدر الذهب . ومن حلف بالمذبح فليس بشئ ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم . أيها الجهال والعميان ، أيما أعظم القربان أم المذبح الذى يقدر القربان . فان من حلف بالمذبح فقد حلف به وبالسكن فيه ومن حلف بالسما فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه . ويل لكم أيها الكتبة ، والفريسيون المراءون لأنكم تعشرون النعنع ، والشبث والكمون ، وتركم أثقل الناموس . الحق ، والرحمة ، والايمان . كان ينبغى أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك .

أيها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويلعون الجمل . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة ، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ، ودغارة . أيها الفريسي الأعشى نق أولاً داخل الكأس والصحفة ، لكي يكون خارجهما أيضاً قياً . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة . تظهر من خارج جميلة ، وهى من داخل مملوءة عظام

أموات ، وكل نجاسة . هكذا أنتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وأثماً . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لانكم تبنون قبور الانبياء ، وتزينون مدافن الصديقين . وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الانبياء . فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الانبياء . فاملاً وأنتم مكيال آبائكم . أيها الحيات أولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم . لذلك ها أنا أرسل اليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ، ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة . لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا ابن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق الحق أقول لكم أن هذا كله يأتي على هذا الجيل .

يا أورشليم ... يا أورشليم .. يا قاتلة الأنبياء وراجة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة صيصانها تحت جناحها ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يترك لكم خراباً . لأنني أقول لكم أنكم لا تروني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب . « اه انجيل متى ا ص ح ٢٣ » .

أما الإيمان بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام في العقيدة الاسلامية فلا يحتاج إلى تعريب أو تبسيط — على الأقل بالنسبة لنا نحن العرب — لأنه يبدو بديهياً وفي غير حاجة إلى تجلية أو برهان .

والعقيدة الاسلامية تركز الإيمان بالله في الآية الكريمة « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته ورسوله لا يفرق بين أحد من رسوله

وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ..

وعلى هذا الأساس تكون شريعة موسى ناقصة ومكملة بشريعة عيسى . وإذا فقد جاء الإسلام كاملاً ، ومكملاً للشريعتين السابقتين له . فإذا أصر أصحاب شريعة موسى على موقفهم الجامد ، وأبوا الاعتراف بالنقص وبالتكلمة ، وحذا حذوهم النصراني فإنهم لا يغيرون من الأمر الواقع شيئاً . ولعل الناس بعد ذلك يتأملون في مفارقات التثليث في رأى الكنيسة ، وفي رأى الاسلام ، الذى لم يقر التثليث لأنه يتنافى مع التوحيد بعد إدراك معناه فى الرسالة الاسلامية . التى استدركت ما أسقط مؤرخوا اليهوديه والمسيحية عن قصد أو عن غير قصد ، مما كان سبباً فى اختلاف وجهات النظر .

ف عقيدة موسى ، وعقيدة عيسى ، وعقيدة محمد تمثل ثلاث العقيدة فى الدين الإسلامى الذى يعتبر الدين الكامل ، والذى قال فيه سبحانه وتعالى فى ختام القرآن « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

إن مسؤولية رجال الدين تجاه ما أسلفنا من قول على لسان النبيين وعلى ما جاء فى القرآن من وحي الله وعلى ما اجتهدنا فيه من إيضاح لما نعتقد ، رغبة منا فى الوصول بالانسانية إلى حدود الله — تبدو واضحة ، وجلية . فعليهم اليوم يقع عبء انتشار الناس من وهدة الخطيئة ، ومن الاضطراب الذى يعيش فيه أصحاب العقائد السماوية متأرجحين بين الشك واليقين . فما كان لليهود أن ينشئوا دولة إسرائيل باسم الدين ، والوعد ، والعهد ، لأن اليهود ليسوا فى حاجة الى دولة ذات حدود ،

إذا كانوا يرغبون حقيقة في الحياة ، لأنه ليس للدين دولة ، وإن كان للدولة دين .
والذى ينطبق على اليهود ينطبق أيضاً على النصارى والمسلمين ... فالدين كله لله ،
وحدود دولته هي حدود الله . فأقيموا الحد ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً .

إن نبي الإسلام حين جاءه الوحي ، وأنزل عليه القرآن لم يتجه إلى من جاوره من
الشعوب اتجاه الراغب في سلطة دنيوية . فقد كان زاهداً في الدنيا كما سبق أن شرحنا
وكما هو معروف عنه ، فقد كرس ذاته إلى الله ، وجهز جيوشه لحرب في سبيل الله ولم
يهيئ للرسالة كنيسة أو خلافة . أو يقنع بحدود أرضية مرسومة لها بل جاوز في
دعوته كل الحدود الأرضية ، والعصبية . ولم يقصر دعوته لله على من أحب حين
أحب إذ قال الله له وهو أصدق القائلين « أنك لا تهدي من أحببت ولكن الله
يهدي من يشاء » . وإنما عليك بالإنسانية جمعاء . عليك باليهود ، والنصارى والحواريين
والمجوس ، وكل من دب على الأرض . قوم اعوجاجهم ، واهدكم إلى صراط مستقيم ،
وأوصهم بالصلاة ، والزكاة ، ومرهم بالمعروف ، وأنهم عن المنكر ، والبغى ، وعظهم
لعلهم يذكرون . وفي شرح معنى الآية الكريمة « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً
ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » . ما يغنى عن التعليق .

هذه هي رسالة الإسلام دين الله الذى ارتضاه للعالمين . فليس بعد الإسلام دين ،
وهذه هي عقيدة الإسلام « أما المؤمنون اخوة » .

ولا توجد بعد الرسالة الإسلامية حدود وفوارق . وإنما جهاد في سبيل الله التزم به
من شاء أن يقيم بين المؤمنين ، والتزم الإسلام بحرب الكفار الجاحدين الملحدين
المنكرين لنعم الله .

وإذا شاء رجال الدين في الأزهر أن يشرفوا قدر الاسلام فليفتحوا صدورهم ، وليفتحوا أبواب الأزهر لقارئ الكتب السماوية . وليؤد الأزهر مهمته في تصحيح عقائد المتدينين . فالدين كله لله . والمسلم الحق من آمن بقوله تعالى « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه لا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير . لا يكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » صدق الله العظيم .

أتى لألمح مع شمس كل صباح صوراً جديدة لاضطراب النفس البشرية التي لا حول لها ولا قوة الا بالله ... ففي كل صحيفة ، ومن كل فم ، ألمح وأسمع ترديداً لألغام نشدة مجها السمع ، وتأذى منها البصر ، وانقسم منها الوجدان ، لأن الذين يرددونها قرروا من قبل وحدانية الخالق . ومع ذلك نجدهم عاجزين عن التعبير الحاسم المطلق لتحقيق الأخاء الانساني . كأنهم يخافون أن تقرّر الوحدة في الدين على غير وعي منهم . وفريق آخر مع الأسف لا يزال يقول بتعدد الديانات بعد ظهور الاسلام متناسين قول الله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام »

وفريق آخر أميل الى الاعتدال ينادى بالتقريب بين الدين الاسلامي والمسيحي ، كأن هناك تباعداً بين الاسلام والمسيحية . لا بين المسلمين ، والمسيحيين كأفراد . هذه هي نقطة الضعف التي أحاول جاهداً ومتبسّطاً تقرير علاج يقبله المعتلون ، والمصابون بها أيا كانوا وأيا كانت ملتهم أو نحلّتهم أو شرعّتهم أو منهاجهم . ولعلّ أصل الى جعل الناس يستظهِرون وعيهم الباطن ليصير عالمهم الذي يتعايشون فيه عالمهم ويبقى الدين كله لله ... والله حسبي .

تصحيح لمفاهيم غرب التحرير
في سوراب

تُهرير :

أثناء زيارتي لدمشق الفيحاء عقب زيارة لبيت الله ورسوله ، اطلعت مصادفة على مقال في جريدة المنار حول موضوع « الوضع المنحرف في ثقافة العالم الاسلامي » هالني منه تشعب الأفكار ، والمبادئ ، والآراء التي تحمل في معانيها معاني جديدة معبرة عما يقاسيه العالم الاسلامي تحت ضربات المطرقة الشيوعية ، وما يعمل في نفوس المسلمين المخلصين العاملين من عوامل الحقد والكراهية ، التي زرعها النازية.. فأدركت أنني مدفوع بعامل قوى للرد على هذا الموضوع

وقد نشرت لي جريدة المنار الرد مشكورة على افساح صدرها للنقاشات العقيدية بعد أن شغل العالم ، وصفحات الجرائد بأمور ثانوية عديدة اكتسبت مع مرور الوقت حق وضع اليد أو الرأي بالتقادم ، وانقطاع الخصومة بالوفاء..

في العالمين سواءً تجري على سنن الطباع وبينهما الف وبين المؤمنين رقاب

واقدم تسلمت عقب عودتي الى موطني ، كتاباً من صاحب الموضوع « الوضع المنحرف » يعرض على فيه أن أدرس (مفاهيم حزب التحرير) دراسة عميقة . فلم أكتف بما أوصاني . بل هضمتها عقلياً لأنني أردت أن أربح صيداً لله بعد أن تنكر الناس له . وحمدت الله على أنني وجدت أخوة لي في العقيدة كنت أتحرق شوقاً للقائهم لأغذي روحي . لذلك عملت على أن أهضم عقلياً مفاهيمهم وأترجم كتابهم « مفاهيم حزب التحرير » . طبعة القدس ١٩٥٣) بحيث أعد هذه الترجمة تصحيحاً للمفاهيم ، فأرجو أن أكون موفقاً .

في قلب الموضوع

قلبت صفحات «المفاهيم» البالغة ٦٤، وأخترت أن أصحح المفهوم الوارد في الصفحة ٣٥ من الكتاب والذي يقول :

«والمراد بجميع هذه الآيات وما شابهها بيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس بدعاً من الرسل بل أرسل كما أرسل غيره ، وأن أصل التوحيد هو الدين ، وهو ما اشترك به جميع الأنبياء والرسل ، أما ما عدا ذلك فكل رسول أرسل بدين ، قال تعالى ...
« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » .

«وعلى ذلك فإن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا ولا يعتبر من الأدلة الشرعية التي تستنبط منها الأحكام» .

* * *

يفهم من هذه العبارات مفهوم معول متناقض فلم يقل أحد بأن إرسال الرسول كان بدعة . (قل ما كنت بدعاً من الرسل) ولا يجوز أن يقال ذلك على الرسول لأنه المنعوت بالخلق العظيم ، ولم يقل أحد بأن الناس أيا كانوا كفاراً أو مسلمين يكرهون الخلق العظيم ، وإن كان يقال أن من الناس من لا يتصف بالخلق العظيم .

وأما القول بأن أصل التوحيد هو الدين خطأ أيضاً، لأن التوحيد هو أصل الدين فيجب ألا يفهم خطأ أن أصل التوحيد هو الدين .

وإذا قررنا بأن الدين هو ما اشترك به جميع الانبياء والرسل ، فيجب أن نقرر أن الدين الاسلامي وحده هو ما اشترك به جميع الانبياء والرسل .

ولا وجه أن يقال بعد ذلك « أما ما عدا ذلك فكل رسول أرسل بدين » لان

قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) ينفي قيام ديانات غير الدين الاسلامي. اذ يقول تعالى .. « ان الدين عند الله الاسلام » . ولا يعنى قوله تعالى (ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه) جواز أو وجوب قيام ديانات تخالف دين الاسلام أو تقف معه على قدم المساواة أو أن تكون هناك ديانات من صنع الناس. فإن قوله تعالى (ان الدين عند الله الاسلام) يعنى التحديد الصريح لقيام دين واحد ، وهو الاسلام . وعلى هذا الاساس يكون الرسول العربي القرشي هو وحده الذى أرسل بدين . وأما ما عداه من الرسل الذين سبقوه فلم يأت بدين ، ولكن أتى بشريعة بدليل قوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) .

إن تمت مفاهيم بداهية نصل اليها ، وتعمق فيها ، فإذا أردنا التعبير عنها أعوزتنا العبارة فابتنرنا القول ، وقصرنا الكلام على مدلول معلول فى الوقت الذى نريد أن يكون شرحنا لوجه نظرنا شاملاً . لذلك أحاول أن أبدأ من القلب . متوخياً تحليل هذا المفهوم .

* * *

الأصل فى إرسال الرسل هو الحاجة الى تبليغ رسالة . والرسالات الربانية ليست كغيرها سهلة الحمل والاداء بل هى فى الغالب تستلزم اختيار الرسول للرسالة كما تستلزم اختيار الرسالة للرسول وفقاً لتطور السنن الطبيعية للخلقة . فقد أرسل الرسل بالدين للناس أى للخلقة ولا نستطيع أن نفترض ان الدين أرسل للملائكة لسابق علمنا بأنهم مبلغو شرعة الله للأنبياء .

كما لا نستطيع أن نفترض أن محمداً يحىء الى العرب بشريعة موسى . لان موسى جاء بها قبله أو أن يأتى بشريعة عيسى لان عيسى جاء بها قبله . ومن المعقول أن نقرر ونحن مطمئنون

بالإيمان أن محمداً قد جاء بالدين الكامل لأن عليه وحده أنزلت الآية الكريمة
(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) ...
ومحمد وحده من بين الرسل من جاء بكتاب منزل كله شاملاً لكل شرعة ومنهاج
أتى بها الرسل لكل أمة وقبيلة . مصححاً لما بين يدي الناس مما اختلفوا فيه من
قبل . وهذا يعني ألا خلاف في الدين بعد الإسلام .

(وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم
فيما فيه يختلفون) .

فلا خلاف في أن وصايا موسى العشر هي أصل من أصول التوحيد في الإسلام
وهي كوصايا الهية تعتبر أوامر ناهية أى مبادئ لمفهوم موحد . فهي تكليف
لإنسان واحد وبالتالي هي تكليف للبشرية كلها (ما خلقكم ولا بعثكم إلا
كنفس واحدة) . ولا يقلل من شأن هذه الوصايا التي أوحى بها إلى موسى أن
أحداً من المسيحيين لا يطبق نصوص الأحكام التي جاء بها موسى لأنهم أى
المسيحيين قد تعلموا من المسيحية درساً روحياً أكمل شريعة موسى الجافة . وإن
كانوا لم يستطيعوا أن يصلوا في التطبيق إلى إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فجاء
الإسلام بشرعته ليحقق للبشر إمكانية العمل للأخرة في الدنيا . .

وإذا فأصول التوحيد قائمة وموجودة من قبل موسى ولا ينفي إنكار الناس
أو تنكرهم لها وجودها ..

فإذا أردتم التدليل على شرح قوله تعالى (لعل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً)

بأن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا انتهاجا لسنة التطور التي ينص القرآن في آياته
الكريمة على وجوب اتباعها .. (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما
لقوم يؤمنون) . وأتبعها بقوله .. (يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى
أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم
الظالمين) ..

فان هذه الآيات لا تنفي قوله تعالى . (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه .
ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون . وأنزلنا اليك الكتاب بالحق
(مخاطبا الرسول) مصدقا لما بين يديه من الكتاب (أى ما سبق أن شرعه لمن
سبقوا) ومهيئا عليه (أى متسلطا على الشرع والمناهج المعطاه للنصارى واليهود)
فاحكم بينهم بما أنزل الله (أى بما أنزل من قبل وما أنزل عليك بالحق) ولا تتبع
أهواءهم (أى لا تتساق مع ميولهم) عما جاءك من الحق (أى ما أوحاه الله اليك أنه
الحق المصدق المصحح لما بين يديك) لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا (أى طريقة
وخطة ومسلكا) ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم
فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) ...

كما أن ذكر هذه الآيات مفصلة لا ينفي قيام شرعة التوحيد من قبل بعث الرسل
الذين جاءوا بديانات - على حد قول مفاهيم حزب التحرير - وهم موسى
وعيسى ومحمد . فإن أصل مبدأ التوحيد في الدين يقوم من قبلهم ويرجع الى ما قبل
تاريخهم بدليل قوله تعالى للرسول (قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم ديناً قىما
ملة ابراهيم حنيفا . وما كان من المشركين) ومن نسل ابراهيم جاء موسى
وعيسى ومحمد .

فإذا رجعنا الى أصل التوحيد في الخليقة اتضح لنا أن آدم أول رجل خلقه الله من تراب . وان استخلاص حواء منه لا ينشئ تعدداً في الفكرة وإنما ينشئ تعدداً في الطريقة ، وأن خلق عيسى بالروح من مريم مثله كمثل آدم من حيث الفكرة أيضاً . وعلى هذا الأساس لا يجوز أن نقول بأن ارسال الرسل كان بدعة أو أن ارسال محمد برسالة الاسلام كان بدعة . أو أن نستخدم عبارة نفهم منها نحن قبل غيرنا من (الكفار) أن ارسال الرسل برسالات متطورة كان بدعة . لأن الاصل في الدين هو التوحيد وليس الدين هو الأصل في التوحيد بدليل قوله تعالى . (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) . فكل الشرائع التي تنزلت على الرسل الثلاثة هي أصول الدين واحد يدعو الى التوحيد اختلفت طرق وصورها وتبليغها وأزميتها ، ولم تختلف في فكرتها أبداً .

واذا رجعنا إلى قوله تعالى .. « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا (أى الذين سلموا بالتوحيد) ، والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً (أى لا يكن فهمكم لآياتي ، وأحكامي ، قاصراً على ما أنتم في حاجة اليه دون غيركم لأن حكم الله ليس قاصراً على فئة دون فئة . أو طبقة دون طبقة أو شعب دون شعب لأن الدين كله لله وإلى الله مرجعكم ، ومرجع كل شيء) ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

فإذا كانت الشرائع ، والمناهج تختلف نسبياً عن مثيلاتها بحيث تكون متناسبة مع طاقة الناس على قبولها ، واحتمالها ، وتطبيق أحكامها . فلا ينشئ اختلافها تعدداً لأن التوحيد منطقياً لا يتعدد . ولكن الناس ، والأمم ، والشعوب ، والازمنة ، والامكنة

والظروف ، والبيئات ، والحالات ، والحاجات ، والشرع ، والمناهج ، هي التي تتعدد بحكم تطورها .

وقد جعل الله لكل من هذه البيئات ، والأمم ، والشعوب ، شرعة ومنهاجاً لا يخرج في مفهومه على أنه شرح لمفهوم عقيدة التوحيد عند كل منها . ولا يعني تعدد الشرعات والمناهج تعدداً في العقيدة الموحدة ، وإنما يعني تعدداً في المذاهب والمفاهيم للعقيدة الواحدة . لذلك كان القول بأن (معرفة حكم الله في المسألة لا تكون الا بالاجتهاد) قولاً معلولاً لأن أحكام الله واضحة محددة من حيث الأصول ، ولا مجال فيها لمجتهد . وإنما الاجتهاد في حالة التطبيق يرجع إلى تطبيق القصاص ، ويقول الله تعالى . (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والانف بالانف ، والاذن بالاذن والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) .

والأحكام الواردة في نصوص القرآن صالحة لحكم العالم كله عجمه ، وعربه . فشريعة التوحيد لا تتغير ولا تتعدد بتغير وتعدد الرسل ، والشعوب . وقد نص القرآن على أن جميع الرسل كانوا مسلمين فلا محل للقول أو الاعتراف بأن ما جاء به الرسل السابقون لمحمد كان مخالفاً للإسلام في شيء ، بدليل قوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) ، وفي قوله تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلته أتقاهما الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله . ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً

لكم انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الارض
وكفى بالله وكيلاً).

فإذا فهمنا أن الدين كله لله ، وأنه مجموعة شرائع ، ومناهج جاءت للناس وفقاً لافهامهم
ليتناول منها كل ما يخصه ويسأل عما يريد الجواب عليه فلا يعنى تعدد السائلين تعدد
المسائل حتماً فقد تكون حاجة الشعب الى الحرية واحدة فتتوحد المسألة ، ولا يتوحد
السائلون . وكل سائل . من الله سينال حاجته فإذا كانت اجابة الله واجبة عليه . فلا
شك أنها موجبة للناس .

وقد قيل في ذلك اذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب ..

قلنا أن الدين هو مجموعة شرائع ومناهج ، ويقول الله تعالى . (ومن يتبع غير الاسلام
ديناً فلن يقبل منه) فالناس اذن لا يتبعون غير الاسلام ديناً كنص القرآن . وان
كانوا يتبعون شرائع ومناهج تخالف بعضها الاخرى من حيث تطورهم وارتقائهم ،
فان الطريق لا يزال مفتوحاً لفهم هذه العقيدة التي تحتم علينا أن ننكر كل دين
يخالف دين الاسلام . ويقول تعالى : (قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد
سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين) . ويقول (هذا صراط ربك مستقيماً قد
فصلنا الآيات لقوم يذكرون) . ويقول (وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا
تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم ، وصاكم به لعلكم تتقون) .
واذن فتعاليم الاسلام لا تأمرنا بأن ننكر أو تنكر لشرع من قبلنا ، وانما توصي
بالألا تتبع مناهجهم لأنها سبقت مناهجنا ، والا سلام دين تطور ، وطريقه الى
العتل البشرى ممدد لكل أصحاب العقول ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا
(الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له) .

وإذا فالطريق إلى فهم العقيدة الإسلامية كدين، يحتم على المسلمين أن يعترفوا بقيام شرائع ومناهج سبقتهم، تخالف شريعتهم ومنهجهم، من حيث ظروف الزمان والمكان والبيئة والتطور، ولا تحتم على من كانت له شريعة قبل الإسلام أن يتخلى عنها أو يطلقها بل يتحتم عليه أن يدع منهجه ويتخذ منهج الإسلام طريقة لشرعته . لذلك اعتقد أن عدم اعتراف اليهود أو المسيحيين بالشريعة الإسلامية لا يعتبر كفراً بل هو أقرب إلى الجمود الحسى ، ظاهره لا يعبر عن باطنه .

ومسئولية المسلم أمام الله تحتم عليه استكمال عقيدة التوحيد من حيث كانت في البدء ، وشرحت لغيره من قبل - أى على المسلم أن يدرس شرائع ومناهج من سبقوه من أصحاب الديانات ليتعرف إلى دينه كحقيقة تقوم على مبدأ التوحيد . فرسالة محمد - بدليل ما يذكره القرآن عن العقائد السالفة ورسلا وأتباعهم - تحتم على المسلم أن يكون ملماً بكل الإمامة من أحكام الشرائع التى سنت لغير المسلمين من أتباع محمد كما يستطيع أن يحكم بين غير المسلمين وأن يكون حكمة مطابقاً لشرعة الناس ومنهاج الإسلام .

فالمسلم مسئول أمام الله عن تبليغ رسالة الإسلام وشريعته ومنهاجه لكل الذين سبقوه من أصحاب الشرائع الأخرى وإن كان لا يعترف منطقياً بديانات تخالف دين الإسلام. لأنه اعتبر أن كل رسول أو نبي جاء قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم إنما قد جاء بشرعة من شرائع الدين الإسلامى . وحينئذ فهى بطبيعتها لا تقف على قدم المساواة مع الدين الإسلامى باعتباره الدين الكامل .

وقد يقوم هنا سؤال : هل يمكن أن يكون فهم الله كأولى البدهيات معطلاً للاجتهاد؟ كلا بل أنه مفهوم بدهى ليس فى حاجة إلى اجتهاد . وأن تفاوت العقول هو المقياس

لمقدار فهمه والا انتفت الحكمة من الشرائع والمناهج . ولكانت كل شروح المجتهدين محررة من كل قيد شارحة لكل مفهوم معلول متناقض .

فالشرائع كلها والمناهج كلها والمفاهيم كلها يجب أن تحقق للانسان ما يسعى اليه . فهو لا يعيش بدون شريعة تنظم علاقته بالله خالقه أو بغيره مما يعتقد . وان كان يتخيل البعض عن البعض أنه ليس لهم الحق في طلب المساواة في الحقوق والواجبات في نطاق علاقات منظمة مرضى عنها . وفهم الله كبدية ليس اجتهداً من مجتهد أطلق له عنان التفكير ففكر وشرع ورسم المنهاج . إنما هو الإيمان أولاً وأخيراً بكتاب الله الذي استقى منه الانسان بالعقل كل المفاهيم حسب حاجته وبمقدار اجتهاده ووفق وعد الله . فشرعة العقل حين استقرت من قبل أن تكون هناك شرع ومناهج وديانات معروفة كانت قبساً من علم الله ، أودعه دماغ الانسان . ولذلك تقرر من قبل أن تكون هناك ديانات أن الله واحد لا شريك له . لذلك نقول أن الاجتهاد حالة بل حيلة يلجأ اليها الذي لا يفهم الأمر بداهة أو الشيء بداهة أو التوقيت بداهة . أما وهو يعلم السر وأخفى فشريعته ومنهاجه رحمة وهدى للناس كي لا يضلوا وكي لا تكون لهم حجة عليه جل شأنه فاذا كفروا بها . . فانه تعالى . . مع ذلك . يقول [لا إكراه في الدين] ويقول أيضاً [من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر] إذا فقد صار شرع من قبلنا أساساً لشرعنا ويعتبر فهمه أساسياً لمن يريد أن يستنبط الأحكام والأدلة الشرعية من كتاب الله العزيز . فالديانات المعروفة باليهودية والمسيحية والاسلامية ما هي الا ثالوث يمثل العقيدة الاسلامية المعروفة بعقيدة التوحيد عند أصحاب الديانات الثلاث أى الدين الأول - الاسلام - وطالما أننا لا نعترف بقيام ديانات تقف على قدم المساواة مع الدين الاسلامي من حيث الكمال التشريعي لذلك تقرر بأن استعمالنا لكلمة [دين] بالنسبة لغير الاسلام هو من باب التجاوز الى حين

يستقر بالناس فهم المفهوم البديهي . الله . الذي له الدين كله . واليه مرجع الناس وهو الذي يقضى بينهم فيما فيه يختلفون .

وأما استنباط الأحكام من الأدلة الشرعية فاجتهاد فيما لم يجيء في صريح النص من أحكام . ومرجعه تطبيق لشرعة العقل دون ما مساس بأصول مبدأ التوحيد .

فإذا كانت بعض البلاد العربية من شرقية وغربية وشمالية وجنوبية لا تطبق نص الشرع في جرائم السرقة فلا يعنى ذلك حتماً وبالضرورة أن الذين لا يطبقون النص لا يطبقون شريعة العقل . أو أن الذين لا يطبقون النص يطبقون شريعة العقل . فأنما جرى الناس على الاجتهاد في التطبيق . واتخذوا من الشرائع الدينية حدوداً قياسية ، لا مقاييس فصلية . فإذا قيل بأن القياس هو الحكم . فقد يحسن بعض الناس تطبيقه أو يسيئون . ولا يعتبر اجتهادهم في التطبيق سبباً مباشراً أو غير مباشر لصلاحية القياس الذي اختاروه . وإنما الخطأ أو الصواب يرجع الى مقدار فهمهم عند القياس أو عند الاختيار والتطبيق .

فالشرائع السماوية كلها قابلة للتطبيق في نظام الحكم في الاسلام ، ونظام الحكم كالرأس ، لا يمكن أن يفصل عن الجسد إلا إذا كان النظام مجرد اجتهاد في تخيل جسم قديم أو حديث . وأن تغير الرأس مع بقاء الجسم كما هو ، مسألة خيالية أيضاً قد ينشأ عن تطبيقها شذوذ على القاعدة .

ولعل الدول العربية التي لا تطبق الشرع الاسلامي كنص ، والتي استمدت قوانينها من القوانين الغربية قد رجعت في عدم تطبيق النص الى هدى القرآن أيضاً من حيث يقول الله تعالى : [رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا هُمْ يُوْمِنُونَ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ

ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم. فالذين آمنوا به، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون). وقوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم). وأن بعض البلاد التي تطبق النص كحد، دون أن تمر بتطورات الوصول إلى فهمه حتى لا تكون فتنة، فقد تجد أن التطور منها بعيد. ولذا فهي تطبق النص مادام الشرع يقره كأساس للحد، وليس هذا هو موضوع بحثنا هنا.

ولعلنا نلاحظ أن تطبيق نص الشرع الإسلامي في المملكة العربية السعودية، ينفذ الآن بيسر دون ما حاجة إلى تقنين حديث أو مستحدث أو لجوء إلى اجتهاد واستمداد من الشرائع أو المناهج الغربية أو الشرقية غير الإسلامية، كرمز حدودي لشريعة السن بالسن، والعين بالعين. فاليئة التي تعيش على الفطرة والتي لم تختلط بالمذاهب الغربية والشرقية المنافية لروح الاسلام، تستطيع أن تهضم بسهولة أحكام الشرع الاسلامي وتمسك بها، ولا تقبل عنها بديلا من المذاهب الأخرى.

وحين نحاول تطبيق الشرع على السنيين في لبنان أو سوريا أو شرق الأردن أو العراق أو مصر؟ نصطدم حتما بالتطور. فهذا النص الذي يعود بالناس إلى الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها يصطدم حتما بممارسات العقيدة التي استلم الناس منها الرحمة، ونجد أن تشبيه حالة الناس اليوم — في هذه البلاد — بحالة كفارقريش، تشبيه مبالغ فيه، مغالى فيه، وأنه تبعاً لذلك لا محل له. فإن شرعة العقل الذي أصبح ديناً بعد مجيئ النبي محمد برسالة الاسلام، تحتم علينا أن ننفي من عقول الناس، وبالتالي من شرائعهم. ومناهجهم، ما يتنافى مع شريعة السلام التي جاء بها الاسلام. ومن الملاحظ أن لكل باحث في هذا الشأن فكرة وطريقة، وأن الداعية للدين

الاسلامي يجد ترجيحاً لدعوته ، إذا اتسع أفق فهمه لمن يدعوهم إلى الاسلام . لذلك
 يقتضى الاسلام من أتباعه ، وحملته رسالته ، أن يسايروا روح العصر ، وأن
 يتفقهوا في تعاليم الاسلام ، على قاعدة صحيحة ، تتفق مع مقتضيات الحال ، الذي
 يعيشون عليه إذ أن تعاليم الاسلام كنصوص ليست مجردة من الروح ، وروح
 الاسلام لا تحتم قطع يد السارق في كل الحالات بدليل قوله تعالى (والجروح
 قصاص) . فمعرض الله عنه لم يرقم الحد على غلام حاطب الذي سرق ، وإنما هدد
 حاطب ، أن يعود لاهمال غلامه ويعطيه ما يغنيه عن السرقة والحاجة . بل ذهب إلى
 أبعد من ذلك في تعطيل بعض الحدود للاقتضاءات الاجتماعية والاقتصادية . ولا يعيب
 الاسلام على الذين يطبقونه التسامح من باب الارشاد ، فسيحاسب كل على عمله ويقول
 الله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ويقول جل شأنه (ولا
 تزرزروا زرر أخرى) - تفسير مسيحي في قطع أذن العبد . ولا تدأوى الجريمة بجريمة .
 وقد نبه سبحانه وتعالى الرسول ، وعلمه مفاهيم عدة لأوامره كقوله تعالى (عليك البلاغ
 وعلينا الحساب) وقوله (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)
 وقوله (ما أنت عليهم بوكيل) وقوله (ما على الرسول الا البلاغ) الى آخر ما جاء في
 الكتاب الكريم . ولعل هذه الآيات بمفهوماتها البديهية في غير حاجة إلى اجتهد المجتهدين
 أو تعذير المخالفين ، فنصوصها أحكام . والتزام المسلمين بها واجب . ومخالفتها غلو في
 فهم المفاهيم البديهية ، قد يؤدي بنا إلى ارتكاب حماقة الظلم والعت والارهاق
 دون ما تبصرة . فكل المفاهيم المؤدية الى فهم الله كحقيقة بديهية تؤدي بنا الى فهم
 الدين على حقيقته ، وتوحي بأن الاكراه لا يمكن أن يؤسس عليه شرع والا أصبح
 هذا الشرع مكروهاً ويقول تعالى (لا اكراه في الدين) .

والدين الاسلامي دين سلام وتقوى ، والتسليم بما أنزل الله على الرسل والنبين لا ينفي قول الله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) و (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الحكم اله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

الاسلام بين الدين والسياسة

اذا قررنا بأن الاسلام دين وسياسة ، فالسياسة الدينية كمبدأ هي وسيلة لكسب الأنصار بالحجة والبرهان واليقينية ، لا بالعنف أو بالسيف . فقبل أن يكون عقوبة يجب أن تكون تعاليم ، وارشادات ، وتذكير ، وتشبيه بالأمثال . وليست السياسة الدينية كالسياسة الحزبية . فالسياسة الحزبية تؤدي الى تقلد المناصب في الدولة أى فى السلطة الزمنية ، والسلطة الزمنية غنم شخصى بالنسبة للناس . وأما السياسة الدينية ، فتؤدي الى هداية الناس الى المراتب العلوية فى الحياة الأخرى . والتناحر الحزبى ليس تسابقاً على فهم المفاهيم الروحية بل تسابق لغيرها من المفاهيم الارضية . أما التنافس فى الوسائل للوصول الى فهم المفهوم البدهى ... الله ... فممارسة لعقيدة ، تعد الانسان بحياة أخرى لا مادة فيها ، ولكنها الحياة الروحية الباقية . والناس لا تتناحر فى الله ، ولكنهم يتسابقون لنيل رضائه . وهم لا يصلون الى حد الله الا عن طريق الفكر والعقيدة والعمل الصالح . وكل مخلوقات الله ترجع الى خلقه الاول وهو واحد فإذا رجعنا الى هذا الواحد كنقطة ابتداء لوجدنا أنفسنا أمام خالق له ما فى السموات وما فى الارض وهو الغفور الرحيم .

ان التعصب للدين ، لا يعنى التعصب لله . فالدين فى حاجة الى من يحمل رسالته ، وليس الله فى حاجة الى أحد . لأنه الأحد . وبالتالي ليس الله فى حاجة الى تعصب المؤمنين به ، ولكننا نحن الذين فى حاجة الى رضائه ، وحبه لنا ، فلو كان حبنا له تعصباً ، لامتلاً حبنا بالحق على الغير ، وهذا يناقض حقيقة حبنا لله ، لأن حب الله يجب أن يكون خالصاً له . فإذا تأملنا فى خلق الله للإنسان بعد خلقه للملائكة ، فهل نفهم من هذا أنه سبحانه وتعالى لم يجد فى الملائكة من يصلح لتعظيم الكون؟ هذا الجواب اجتهد من العقل لا من الشرعة والمنهاج الدينى . فالله سبحانه وتعالى خلق الملائكة لتنفيذ تدبيره فى ملكوته لأنه الواحد الفرد . والملائكة هم جنود الرحمن الواحد الفرد فى ملكوت الله . وهم لا يفنون . لأنهم مخلوقات هيوليه ، وان كانوا يتحولون . فإبليس كان ملاكاً وتحول الى شيطان لأنه لم يصدق لأوامر الله .. أما من شاء من عباده أن يتكبر أو يتجبر أو يظنى كفرعون — فقد أغرقه الله .

ولورجعنا الى تفسير لاسم آدم وحواء وقايل وهايل بالكردية ، لوجدنا أننا أمام تصور لقصة خيالية رائعة حيث تفسر الكردية كلمة آدم بـ «كديم» . أى «قديم» وكلمة حواء بـ «هافاء» أى «هواء» . وكلمة قايلين بـ «خائن» وكلمة «هايل» بـ «آيل» ... أى الملاك ولنفرض أنها تفسيرات خيالية فعلاً فهل نستطيع أن ننكر أن الخيال هو الحقيقة الأولى ؟ .

حتى بالكردية — وهى ليست مرجعاً لنا بعد تنزيل القرآن بالعربية وهى لغة إقليم — نستدل من مفهوم آدم وقديم — الأديم هو القشرة الأرضية وأديم الانسان جلده — أن الله سبحانه كان موجوداً قبل الوجود فهو سبحانه الذى أوجد الوجود ، ولا نستطيع أن نفهم من آدم جدنا القديم ، أنه خالق لأنه مخلوق ، أو أن اسمه آدم . لأنه مشتق

من كلمة دوام — للمشكلة الحرفية بين هاتين اللفظتين — فالدوام بالنسبة لآدم حال والحال لا يدوم . فالحال ظرف ، والظرف يعنى التغيير ، والله سبحانه وتعالى يغير ، ولا يتغير . وعلينا أن ندرك بعد هذا أن الله خلق آدم على صورته كبشر ليعمر الكون وركبه من طين وماء مهين ليكون ملتصقاً بأصله ، وأصوله ، الى الأرض ليحبها لأنه منها . ويرجع اليها فهو يعيش عاملاً على البقاء فيها . ليعمرها حتى تأتى ساعته حين يكون قد فقد طاقته على البقاء ... وهكذا نرجع لتفسير الكردية لآدم كقديم الى تصور أن الانسان هو صانع الانسان ، وقد نكون محقين فى هذا التصور لو لم تجيء الشرائع السماوية فتهدينا الى أن الله هو الصانع الأول المبدع المصور ... فآدم كأصل لنا يبقى ذكراً ، مرجعاً ونحن له فروع مستنبطة متوالدة من هذا الاصل . ولكل منا شرعة ومنهاجا .

ولعنا ندرك الآن — ولو الى حد ما ، أن صلة الانسان بالخالق وعلاقته به قد أتت كنتيجة منطقية لفكرة الله التزمها أصول شريعته فى التوحيد . وأنه — أى الانسان — فلقنان لنواة واحدة . تشق من تلقاء ذاتها وتلتئم من تلقاء ذاتها أيضاً لتكمل ذاتها . ولتستكمل شريعة خلقها وتكوينها ... ولكنها مع ذلك لا تتصرف من تلقاء ذاتها لا فى حالة انشقاقها ولا فى حالة التئامها بل هى ارادة الله التى جعلتها مخلوقة من الارض أى من التراب والماء ، فلولا نفخ الله فى الانسان لما استطاع الانسان أن يستكمل ذاته أبداً — إن مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض » فإذا كان بين الملائكة من تحول الى شيطان فإن بين الناس من ارتقى إلى مراتب الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والدين كمجموعة شرائع بعث بها الله الأنبياء والرسل للطبقة الثالثة من الناس — لم

يكن يوماً ما ضرورة للصالحين كما لم يكن علماً سابقاً للنبيين والمرسلين. إذ لم يتم دليل واحد على أن أحد الانبياء أو الرسل، الذين نعرفهم، كان في أساس تكوينه ملكاً أو شيطاناً تحول إلى نبي. وإذا فالرسالات السماوية ليست بدعاً، والرسل ليسو بدعاً، وتعدد الشرائع ليس بدعاً وإنما البدع أن ننكر أصولنا الموحدة التوحيدية إذ ننكر أن شرع من قبلنا هو أيضاً شرع لنا فكل الذين جاءوا ليعمروا الأرض ولا يملكونها هم في مصاف الأنبياء أيضاً، الذين جاءوا ليؤدوا الرسالة. ففكرة الخلق والخلقة وطريق خلق الخليفة وإحيائها وإنهائها هي من مكونات السر الإلهي الذي لا يعلمه إلا علام الغيوب. دون ما مطمع في الدنيا يتناولونه عن طريق خلط السياسة بالدين.

وإذا قلنا بأن الدين لمن لا يريد أن يفهمه كمجموعة شرائع، التزم بها الخالق باعتباره خالق الخليفة — فلا أقل من أن نعتبر الدين منهاجاً دراسياً تنمو مفاهيم الإنسان له كلما نما وتطور. والعلم به غاية لا يشبع منها الإنسان أبداً. فنحن لا نعلم ما يعلمه الله. وكل ما نعلمه هو من علم الله، وإن ظللنا لا نعلم كيف خلقنا الله في أول صورة، وأول تكوين (وإن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً). وإذا كنا لا ندرك الله كقوة غير محدودة فلا يعني أن تقصر اجتهدنا على اقرار وجوده بتعنت. فنكون ملكيين أكثر من الملك — فإنما اصطنعنا الله لنفسه. وجعلنا نعمل ونصنع ونخترع ونبتدع، مستمدين القوة على كل ذلك من قوته غير المحدودة. حتى إذا ما توصلنا إلى حصر الطاقة الكونية — كما خيل لنا عندما اكتشف علماء الذرة طريقة حصرها. فإننا ما زلنا نسعى للوصول إلى القوة التي تفوق الطاقة الكونية قوة. إلى الفهم الذي يجعلنا نظمئن. إلى السعي المتواصل. إلى

الصالح ... الى الفكر الذى يصور لنا الحياة الدنيا كمادة لا قيمة لها بغير وجود الله .

وبما أننا لا تساوى من حيث القوة على الحياة أى على العيش والتعمير فى الأرض والسيطرة على أنفسنا وعلى عباد الله الآخرين . فذلك لأن طاقتنا على البقاء معمرين فى الارض محدودة إذا قيسَت الطاقة الكونية التى نستطيع حصرها فى وعاء ما بعدد الذين يستطيعون أن يتخيلوها، فلا شك أن مقياس علمهم سيظل أيضاً غامضاً ومجهولاً بالنسبة للروح ، التى يحيا بها الانسان ، والوضع الذى يجب أن يعيش عليه . ويقول تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك) . ولو تأملنا قليلاً فى الأجسام التى فارقها الروح لأدركنا كيف أنها عند ذلك تكون أكثر ثقلاً وأقل مقاومة ، بينما الأجسام الحية التى تسكنها الروح أخف ثقلاً وأقدر على المقاومة . فإذا ما صممت أحاسيس الحياة كلها واقتبضت مواردها من الأجسام ، فان ثقلها يخف تدريجياً إلى أن تصبح ذرات رماد .

وبما أن الملائكة مخلوقون من أجسام هيمولية . فإن قدرتهم على البقاء أو على التحول تعتبر منطقياً علماً مستساغاً . لأن الهيمولية ليست مادة من مواد العدم، بل هى مادة من مواد الوجود فى حدود ما نعرف عن الروح التى يقول فيها الله سبحانه وتعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

هذه هى مفاهيم أقل تعقيداً من مفاهيم حزب التحرير التى أطالها فى كتابكم من منشورات حزب التحرير . وأرجو أن يكون واضحاً أن (عدم فهم الفكرة الإسلامية من قبل القائلين بالنهضة فهماً دقيقاً) و (عدم وضوح طريقة الاسلام لديهم فى

تنفيذ فكرته وضوحاً تاماً) و (عدم ربطهم الفكرة الإسلامية بالطريقة الإسلامية ،
 ربطاً ممكناً غير قابل للانفصال ، لا يعنى قيام حزب يتهم الناس بالكفر إذا كانوا غير
 مسلمين ، أى مؤمنين بمحمد رسول الاسلام لأسباب عدة . منها ما هو واضح فى مفاهيم
 حزب التحرير عن عوامل التغطية التى بدأت فى أوائل القرن الثانى للهجرة من قبل
 أن تكون هناك فاشية أو ديمقراطية اشتراكية أو شيوعية أو قومية أو عريية أو
 شرقية أو غربية . وليس صحيحاً أن علماء المسلمين قد تأثروا بالفلسفات الهندية ،
 والفارسية واليونانية . كما تقول مفاهيم حزب التحرير مما (حملهم على ارتكاب
 محاولات للتوفيق بين الاسلام الا فيما اجتهدوا فيه من مؤلفات لا نستطيع أن نعتها
 وإنما هى معبرة عن الإسلام كوحدة فكرية) .

فكتاب الإسلام وهو القرآن ، وهو ما يجب أن يكون مرجع كل باحث عن الفكرة
 والطريقة الإسلامية ، لا يزال للآن كتاباً مصوناً لم يمسه أى تعديل ، بل ومغلق لم
 يفتح بعد ، بالنسبة لأكثر المجتهدين ، الذين خيل اليهم أنهم قد وصلوا الى مفاهيم
 الإسلام بطرق فطرية ، من حيث أنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها . فإذا
 كان أكثر ما كتب فى الثقافات الإسلامية لم يتعد اجتهاد الكتاب والعلماء الذين
 أرادوا أن يبسطوا وجهات نظرهم فاستأثروا فى فهم معنويات تخالف الشرع الاسلامى
 كثيراً من حيث الروح والمعنى ، ولا تخالفه من حيث النص . فلا يعنى أيضاً أن الدين
 الاسلامى لى يعيش ويستمد الحياة من العربية كلغة ، ومن العرب كدعاة ذلك
 لأن تنزيل القرآن بالعربية على العرب ، لم تكن حكمته مجردة ، بل تحمل معنى أن
 الله قد خاطب الناس بلغاتهم . وأن الناس تبعاً لذلك يجب أن مخاطبوا الناس بلغاتهم .
 والمجتهدون الذين انحرفوا بتعاليم الاسلام بعد أن استندوا إلى الشرع والدين الاسلامى

ليحملوا الناس على الأخذ بآرائهم ، لا يمكن أن نعتبرهم أئمة ودعاة ، لأن منهم الوصوليين والظالمين ، وعشاق المناصب والمغرورين ، والأغنياء والفقراء على حد سواء . ولا شك أن هذه الجماعة قد تنسكت الطريق نحو الهدف ولم يبرز من بينها واحد خلف الرسول في طريقته الى الدعوة الاسلامية . وقد روى عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال (الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا ويتبعوا السلطان فإذا فعلوا ذلك احذروهم) .

ترى كم من الحكام الذين خلفوا الصحابة قد تمثّلوا بالصحابة في الطريقة التي ربطوا بها بين الفكرة والطريقة الاسلامية ، ربطاً محكماً غير قابل للانفصال ؟ . . مهما قيل في هؤلاء الحكام فإنه يقصر دون بلوغ درجة من درجات السكّال التي وصل إليها أصحاب الرسول .

فاذا قيل الآن بأن ثمة حزب للتحرير يقوم على الدعوة للفكرة الاسلامية لربطها بالطريقة الاسلامية في الحكم ، فإن هذا الحزب يتسكب الطريق الى الهدف الاساسى الذى يدعو اليه لأن هدفه الحكم على نظام سياسى دينى ، وقد انتهى زمن السياسة في الدين حين بدأت المذاهب الاقتصادية والاجتماعية تبرز في المجتمع في شكل جماعات تدعو إلى اتباع طريقة تعتقد هي أنها كفيلة بالوصول بالناس الى الهدف الاسمى أو المثالية أو السكّال النسبى . فاذا خلطنا السياسة بالدين الآن لازداد الامر علينا اختلاطاً ولا أصبحت العقدة التي نحاول حلها مركب نقص معقد لا سبيل لحله الا بتوحيد الطريق لا الخطة إلى الهدف . وإذا كان الحزب — حزب التحرير — (يرى أنه يجب أن يعرف الناس السياسة ، وأن تظهر عليهم التربية السياسية) فكأنه يحتم على مريديه أن يقبلوا شمول شرعتهم ، ومذهبهم ومنهجهم

المعطى لهم من الله لشرائع ومناهج جديدة ، معطاة لنا من أنفسنا ، وفي هذه الحالة
يعلّ الحزب مبدأ التوحيد من حيث هو يريد اقراره كأساس . فالعقيدة الاسلامية
من حيث هي ، شرعة ومنهاج ، اختتم الله بها شرائعه ومناهجه التي أعطاها للعالمين ،
وأصبح الامر اجتهاداً بعد ذلك . اجتهاد يفسر على أنه تعقيد في فهم العقيدة البديهية..
اذا قيل بعد ذلك أن (السياسة هي أن ترعى مصالح الامة جميعها داخلية
وخارجية وأن تسير تسيراً اسلامياً ليس غير ، وأن يكون ذلك من قبل الدولة ،
ومن قبل الأمة ، تحاسب فيه الدولة ، وحتى يتأتى ذلك عملياً لابد أن يكون الحزب
هو الذي يتولى ذلك في الامة ، وفي الحكم ، ولذلك يحمل الدعوة في الاسلام دعوة
شاملة ويبين للأمة الأحكام الشرعية التي تعالج مشا كل الحياة ، ويعمل بأن يحكم
للإسلام وحده ، ويجاهد الكافر والمستعمر لقلعه من جذوره ، ويكافح علماء
الاستعمار سواء الذين يحملون قيادته الفكرية ومبادئه ، والذين يحملون سياسته
وأفكاره) . فان هذه الرغبة بل هذه الغاية لا يمكن أن يحققها حزب واحد في أمة
فيها أحزاب تعمل لصالح أعضائها . فان حزب الله يعمل من أجل الله أو هكذا
يجب أن يكون . ويتقضى منطق الدعوة السليمة لحزب الله أن يقوم أولاً على انكار
وجود الأحزاب السياسية وأن يقوم على استنكار استقلالية الشخصية المعنوية التي يتمتع
بها رجال الديانات غير الاسلامية في بلاد الاسلام مع الاحترام القائم لشرائعهم .
كما كانت الحال في مبدأ ظهور الاسلام الذي منح المفاهيم والمعتقدات التي كانت
سائدة قبل مجيئه وقبل وجود أهلها بين ظهرائي أهل وبلاده . ومن نقطة الابتداء
هذه نستطيع أن ننطلق في الدعوة التحريرية لنؤلف بين قلوب المسلمين تنفيذاً لسياسة
الاسلام الصحيحة ، وطريقة الاسلام الصحيحة من حيث هو الدين الذي ارتضاه الله

الناس على اطلاقهم . فشمّل الذين عاشوا في الماضي ، وعاشوا في حاضر الدعوة الإسلامية كما شمل الدعوة للإسلام في المستقبل .

ودراسة الفكرة الإسلامية اليوم على ضوء ما نحن فيه وعلى ضوء ملاحظة مفاهيم حزب التحرير القائلة (فإنه ينبغي أن نلاحظ أن الفارق بين أهل مكة ودعوتهم للإسلام وبين المسلمين الآن ، ودعوتهم لاستئناف حياة إسلامية ، هو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو كفاراً للإيمان ، وأما الدعوة الآن فهي دعوة المسلمين لتفهم الإسلام والعمل به ولذلك كانت الدعوة الآن أسهل وأقرب) .

هذه الملاحظة من ملاحظات حزب التحرير توحى بأن هذا الحزب يرى أن كفاح المسلمين اليوم يجب أن يتجه الى تكتل المسلمين فحسب . أما الدعوة - دعوة الإسلام - للكفار لأن يؤمنوا فلم تعد اليوم ذات موضوع بالنسبة للدين . ألا أن المسلمين الآن والى يوم القيامة مسئولون عن تبليغ رسالة الإسلام للعالمين سواء كانت الدعوة لتفهم الإسلام والعمل به بالنسبة للمسلمين بالذات أو الدعوة لغير المسلمين من الذين يعيشون في البلاد الإسلامية لتفهم الإسلام ، حتى لا يكون هناك اضطراب يحتم على المسلمين أن يهجروا ديارهم ، لأن الحكومات التي بيدها مقاليد الأمور في ديارهم لا تطبق الشريعة الإسلامية بالطريقة الإسلامية ...

ففي مثل هذه الهجرة لا تتحقق رسالة الإسلام لأن الهجرة في سبيل الله هي حركة فتح لا حركة أنطواء أو إحتباء أو تهرب من حاكم ظالم مستبد لا يطبق تعاليم الإسلام . ليست اذن الدعوة الإسلامية دعوة خاصة بالعرب لأن القرآن أنزل عربياً ، لأننا مكلفون بتوصيلها وحملها الى كل الناس من عجم ومن عرب ، بمختلف اللغات . لكي

تكون في متناول مفاهيمهم فيكون هناك مسلمون في الهند وفارس والصين وأمريكا وأوروبا وفي كل مكان . لا يحسنون بعجز أو قصور في الدعوة الإسلامية وفكرتها وطريقتها وشريعتها .

إذا تأملنا قليلا بصراحة إسلامية وبساطة إسلامية لوجدنا أن الدعوة الإسلامية قد صححت مفاهيم وأحكام كل الشرائع والمناهج التي سبقت الإسلام . فلم يهضم الإسلام حق أحد من أهل الكتاب . حتى ولا حق الكفار الذين جاءهم الرسل والهداة فلم يقبلوا رسالتهم أو قبلوها على ضيق ، ولم يعملوا بها أو عملوا بها ، وهم غير مؤمنين بها . فإذا كان الاجتهاد بالشرع لا يتأتى الا باللغة العربية لأنها (شرط اساسى فيه) فما علينا الا أن ندعو أولا لتعلم اللغة العربية وأن ندعو لها لكي تصبح لغة عالمية يفهمها ويفقهها جميع أصحاب الشرائع ومعتقيا ومعتقديها . ان في عالمنا العربى علماء و بطارقة ورهبان وكهنة وقسيسين وأخبارا ، كلهم متقنون في اللغة العربية لأنهم من أصل عربى حتى اليهود منهم . فلم لا تقطع الطريق على الاستعماريين الذين يحاولون عن طريق المؤتمر الإسلامى المسيحى تقريب وجهات نظر المسلمين نحو المفاهيم العربية الاستعمارية ؟ . .

فإذا كنا فى عجز أو فى حالة عجز عن سلوك هذا الطريق السهل القريب . فكيف نتحدث عن مفاهيم للفكرة الإسلامية والطريقة الإسلامية فى حكم الامم والشعوب ؟ أما أن هذه الرسالة قد نزلت بالعربية على العرب فلحكمة يعلمها الله وقد منحنا المقدرة على فهمها . . .

فتنزيل القرآن بالعربية برهان قاطع ودليل ناصع ، أتى به الله سبحانه وتعالى للعرب الذين اختلط عليهم - قبل مجيء الرسول - أمر التوحيد بعد أن دعت الكنيسة الى عبادة الله عن طريق الثالوث ، ويقول تعالى في هذا (لقد كفر الذين قالوا أن الله ثالث ثلاثة) .

وإذا أدركنا أن الاسلام ، بل الدعوة المحمدية للاسلام ، قد جاءت في غضون ستة قرون فقط من مجيء الدعوة المسيحية ، وقبل أن تستقر للمسيحية قاعدة ابان خلاف قام بين الشرق والغرب حول التوحيد والتثليث والتوقيت لتستقر السنة القمرية وينتهي الخلاف في التوقيت . وفي ذلك يقول (ان عدة الشهور عند الله اثنتا عشر شهراً) . فتكون الدعوة - دعوة الله للعرب بلسانهم ولغاتهم - مفهوماً بدهياً أدركته عناية الله ولم يستطع رجال الدين للآن ادراك مفهومه .

فهل آن الأوان اليوم لقيام نهضة اسلامية صحيحة تعيد النظر في بعض الشروط التي نص عليها الله في احكامه في القرآن من حيث معاملة الأجانب عن الاسلام ؟ .. اننا نقرر ان الدين عند الله الاسلام كما جاء في نص الكتاب . وقرر بأن مفهومنا هذا تسليم للامر الواقع . وقرر أيضاً بأن لا حيف ولا ظلم ولا عنف ولا اكراه في الدين ..

وعلى هذا الأساس يكون المفهوم البدهي للاسلام معبراً عن الكمال في الدين ، كطريق لاستكمال الشرائع الربانية . ولا محل مطلقاً لشرعية يضعها كارل ماركس أو أنجلز أو جان جاك روسو أو هيغل أو هتزلر أو موسولينى أو جان بول سارتر أو غير هؤلاء .. فالاسلام غنى بمبادئه ، غنى بروحه ، موفق في هديه . عادل في احكامه وتطبيقه

فكرياً وعملياً عن طريق الاقناع العقلي ولا فائدة من معالجة القتل بالقتل والجريمة بالجريمة، لان الاسلام دين سلام وليس دين حرب . الا على الكفار الذين آمنوا ثم ارتدوا ، لا الذين لم يدخل الايمان قلوبهم بعد .. والفئة الأولى هي المقصودة بقوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) والناس في شرعة العقل لا يتعادون الا بعد ممارستهم لمفهوم وانتقاض بعضهم عليه .

وقد جاء الغرب مادياً الى الشرق باحثاً عن الروح ومصدرها لانه ليس بطبعه مضراً للأشعاع الروحي ، بل منعكساً عليه . فلما وجد الغربيون المسلمين وغيرهم من سكان الشرق يفتقرون الى المادة بسبب افتقارهم الى العلم ، وتبين لهم أن العرب لا يطمثون اليهم لأنهم لا يفهمون لغاتهم ، وبالتالي لا يعرفون عن مبادئهم الاجتماعية شيئاً . ومادام الدين لا يركز به أحد أو يدعو اليه ، بل أن الحكومات العالمية تعتبر أن الدين لله وأن الناس احرار فيما يعتقدون . . إذن فليعلموا هؤلاء وأولئك شرائعهم الاجتماعية والسياسية . فاذا ما حدث ذلك ، رجع المسلمون الى كتابهم بله دستورهم القرآن ، يستلهمونه الوحي والارشاد . ففسروا القرآن بروح الزمن الذي تنزل فيه . فكان التخبط والشعور بأن الغرب الاجنبي عن الاسلام . . ككفر . .

ان تقاليد الشرق وعاداته ولغاته تخالف بحكم طبائعها وبيئاتها تقاليد وعادات ولغات الغرب . هذا الغرب الذي كان قد ارتشف من مناهل المسيحية فكرة عن الروح تعوزها الطريقة المثلى لتجعل من هذا الينبوع المسيحي للعقيدة الروحية بالله شريعة يمكن تطبيقها تطبيقاً عملياً . الأمر الذي اقتضى أن يرسل الله سبحانه وتعالى محمداً برسالة

الأسلام ليهدى الملحدين الذين لم يصل الايمان الى قلوبهم وليهدى الضالين الذين
أشركوا عن جهل وأولئك الذين آمنوا ولم يستقيموا فارتدوا عن ايمانهم وحادوا عن
الصراط المستقيم .

لقد أثرت هذه العوامل كلها في نفوس الغربيين الذين جاءوا إلى الشرق ، باحثين
فاحصين هائمين . تحذوهم الرغبة في الوصول إلى مصدر النور السماوى الذى حكى عنه
الرسول ، وكأنهم يبحثون عن تفسير لآية الله الكريمة (الله نور السماوات والارض
مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجه كأنها كوكب درى
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم
تمسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء) .

فلما لم يستطع الغرب أن يلتقى بمن يدهله ويرشده من أئمة الشرع الاسلامى ، لم يجد
محيصاً من البحث بنفسه ولنفسه . بوسائل علمية بحتة . مما أنشأ عند الغربيين عقدة
جديدة ، هى عقدة النبوغ التى تعتمد فى تركيب بنائها وهدمه على شرعة العقل قبل
أن يصبح ديناً .

وقد أوضح الاسلام معنى الدين بالنسبة للعقل فى مبدأ القول بأن الدين هو العقل ،
وأن لا دين لمن لا عقل له . غير أن الغرب قد تجاهل إلى حد بعيد قيام الدين مقام
شرعة العقل والفرق واضح بين الشريعة والشرعة . فالشرعة هى جزء من الشريعة
والشريعة — كدين — تمثل مجموعه من الشرع لذلك كان القول فيما سبق بأن
الدين الاسلامى يمثل — كشرعيه — كل الشرع التى سبقته قول يهضمه العقل
وترتاح اليه النفس .

ولا أعتقد أن أحداً ما من رجال الاسلام في العصر الحديث قد حاول خوض غمار هذا البحث توصلاً إلى إقرار شريعة الاسلام كشرعية عامة للعالمين .

فعمدة النبوغ انطلاق نحو الابتكار ، والتجديد ولا تعرف حداً لانطلاقها . وعمدة النقص إنما هي معنى من معاني الجود التي لا تعرف طريق الانفكاك عن ذاتها ، ولا تحاول الانطلاق . وإننا نرى أن الربانة الذين تألبوا على سفينة الشريعة الاسلامية للآن لم يكن هدفهم الا الوصول بطرق اجتهادية الى مرفأ محدود في نطاق غير محدود ، لبحر زاهر من العقائد الوجودية الملموسة تعبر عنها بالعقائد السياسية والاقتصادية التي كانت ثمرة المذاهب السياسية وخطط السياسة بالدين . وليس العيب الذي نحن بصدد اصلاحه قاصراً على المسلمين ، ولكنه يشمل أيضاً المسيحيين واليهود . فالتعاليم الكنسية لا تزال للآن تنهى تلاميذها عن اتباع مبدأ المساواة الاجتماعية في الانسانية . فلتختلف الديانات في مسالك طرقها ما دامت تؤدي إلى الطريق الحق ، أما أن يحاول اليهود خلق وطن قومي في دولة اسرائيل ، ويحاول المسيحيون اقضاء المسلمين عن أواسط أفريقيا وجنوبي السودان ، حيث لا يزال الناس على الفطرة ، ولا يجد هؤلاء حرجاً في الاستمرار على هذه الخطأ ، طالما كان المسلمون أمثال دعاة حزب التحرير في الشام ينعمون غير المسلمين في أي جهة بالكفر... لذلك أحب أن أسجل هنا على سبيل المثال لا الحصر بعض توجيهاتي التي لا مفر لي من اثباتها بعد اطلاعي على وجهات نظر اخواني المسلمين من أعضاء حزب التحرير وهي تنصب على آرائهم في الثقافات الغربية والمذاهب السياسية الشيوعية والفاشية والنازية والقومية الاجتماعية .